كتاب في التربية

مجموعة محاضرات ألقتها في الجامعة المصرية سنة ١٩١١

لبيبة هاشم

صاحبة ومحررة مجلة فتاة الشرق

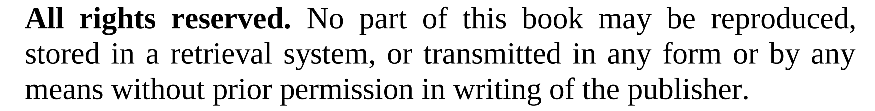
الكتاب: كتاب في التربية

الكاتبة: لبيبة هاشم (صاحبة ومحررة مجلة فتاة الشرق)

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

هاشم، لبيبة
كتاب في التربية
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٩ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٣ – ٠٢٥ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٨٨٧ / ٢٠٢٠

كتاب في التربية

مجموعة محاضرات ألقتها في الجامعة المصرية سنة ١٩١١





إهداء

إلى حضرة صاحب الدولة الأمير أحمد فؤاد باشا رئيس الجامعة المصرية ..

إن ما تبذلونه من الهمة والاجتهاد، وفي تربية الناشئة المصرية لجعلها في عداد الأمم الراقية وما تصرفونه من العناية بتربية المرأة وتهذيب أخلاقها لتبلغ ذروة الكمال ،دفعني لأن أقدم إلى مقامكم السامي هذا الكتاب المشتمل على المحاضرات التي ألقيتها في الجامعة المصرية في فن تربية الأولاد والذين هم رجال المستقبل، فأرجو أن تتنازلوا إلى قبوله وهذا حسبي،

لبيبة هاشم

مقدمة

يحتوي هذا الكتاب على ملخص محاضرات في التربية ألقيتها على السيدات في الجامعة المصرية سنة ١٩١١ وقد اخترت هذا الموضوع لأنه أهم ما نحتاج إليه في عصرنا الحاضر فنال ذلك ارتياحاً عظيماً لدى العقلاء والأدباء فانهالت عليَّ رسائل الثناء منهم متتابعة بما دفعني إلى إجابة طلب الجامعة من حيث زيادة التطويل واستيفاء البحث بالرغم عن كثرة أشغالي.

وقد تلطفت الجامعة المصرية حفظها الله فعنيت بطبع بعض نسخ من كل من هذه المحاضرات على الآلة الكاتبة ونشرتها في أهم الجرائد المصرية جاء فيها أغلاط مطبعية لا تخفى على الأديب.

فالشكر للجامعة المصرية ثقتها بي وأثني على سائر الجرائد والأدباء الذين قابلوا محاضراتي بالاهتمام والاستحسان تنشيطاً لي ،سائلة المولى أن يلهمنا جميعاً إلى ما فيه خير البلاد وفائدة أبنائها .

لبيبة هاشم

صاحبة مجلة فتاة الشرق بمصر

المحاضرة الأولى

التربية

المقدمة

حياة الأمم رجالها ونساؤها ولا رجال ولا نساء إلا حيث الأجسام الصحيحة والآداب الراقية وهذان الأمران لا يتمان إلا بالتربية القويمة لأن التربية هي التي تعين الطبيعة على إنماء قوى الولد الجسدية والعقلية وتصونه من أمراض الجهل الفتاكة وأخطار الإهمال الكثيرة وتكسبه فوق ذلك من قوة البدن ودماثة الأخلاق وحسن الاختيار ما يؤهله لأن يكون عضوا نافعا في الهيئة الجامعة، ومن منا نحن النساء لا تحب أن ترى ولدها (سواء كان صبياً أو ابنة) في مقدمة ذوي الشرف والاستقامة والمقامات العالية ومن أصحاب الفضل والصلاح والإحسان.

أجل إن كلاً منا ترغب في ذلك وتتمناه ولكن قليلات هنَّ اللواتي يساعدهنَّ حسن الطالع على إحرازه وإذا قدّر لهنَّ ذلك أي إذا قدر أن يكون لهنَّ أولاد محمودي الخصال فذلك اتفاقاً أو بتغلب الخير في سليقة الأولاد وليس بفضل الأمهات وعنايتهنَّ.

أقول ذلك وأنا لا أجهل مبلغ آداب نسائنا وصفاء قلوبهنَّ وأنهنَّ أبعد نساء العالم عن المنكرات وأكثرهنَّ تمسكاً بأهداب الفضائل والمبرات على أن ذلك لا يكفيهنَّ لمعرفة كيفية الاعتناء بصحة أولادهنَّ

وإرهاف أذهانهم إذ أن التربية علم واسع بل بحر زاخر لا يستطيع المربي خوض غماره بمجرد كونه فاضلاً أو أديباً بل من الواجب أن يتعلمه علماً ويقف على كنه أسراره حتى يستحق أن توكل إليه العناية بالأولاد أولئك الصغار الذين يصبحون يوماً رجال المستقبل. وإن صعوبة هذا العلم وعظم أهميته مع عدم تمكن الوالدين من معرفته قد دفعت الأقدمين إلى إقامة المربين والمعلمين للأولاد وحذت حذوهم الشعوب الأوربية والأميركية في الأعصر الأخيرة فاهتمت في أمر التربية اهتمامها بسائر العلوم أو أكثر فارتقت بلادها وتقدم شعبها تقدماً باهراً.

أما نحن فإننا لا نزال حتى الآن رجالا ونساءً نجهل قواعد التربية ولم يخطر لرؤساء مدارسنا الاهتمام بها ولا اكترث كتابنا بوضع مصنَّف واحد لتعليم الوالدين فن تربية الأولاد حتى أن أسلافنا مع ما بلغوا إليه من الحضارة وسعة المعارف وما اشتغلوا به من العلوم والفنون قد أغفلوا فن التربية ولم يثبتوا شيئاً من قوانينه في مصنفاتهم ولا يزال هذا العلم ماثلا حتى يومنا الحاضر.

ولكن أملنا بهمة صاحب الدولة رئيس الجامعة المصرية ورجال إدارتها الأفاضل أن يعنوا في أمر التربية عنايتهم في سائر العلوم التي تدرس في هذا المعهد العالمي فينشئوا فرعاً خاصاً لتعليم المعلمين قوانين التربية التي يجب أن يجروا عليها في معاملة الطلبة والاعتناء بصحة أجسامهم وأخلاقهم في جميع المدارس وما ذلك ببعيد على رجل الغيرة والفضل رجل الهمة والإقدام – رجل الوطنية الصادقة – رجل

الخير – رجل العمل – مثال الجد والنشاط – صاحب الدولة البرنس احمد فؤاد باشا حفظه الله وأيده بمعونته الصمدانية لإتمام مقاصده الشريفة وتنفيذ أعماله العظيمة التي طلعت تباشير فوائدها على الأمة المصرية وانتشر شذا محاسنها في سائر الأقطار العربية تذيع محامد مولانا عزيز القطر سمو الأمير المعظم عباس حامي الثاني خديوي مصر وسمو ولي عهده الكريم الأمير عبد المنعم رئيس الشرف على هذا المعهد العلمي العظيم.

أجل ليس ببعيد على غيرتهم العظيمة وهمتهم العالية أن نبلغ يوماً بآمالنا ما نرجوه من تحسن حالنا على أنه وإن تم لنا ذلك وبلغ معلمو مدارسنا أعلى منزلة من التربية فذلك لا ينقص من واجبات الوالدين نحو أولادهم ولا يغنيهم عن الاهتمام بهم في الصغر أي قبل دخولهم المدرسة وفي الكبر أي بعد خروجهم منها وفي ما بقي من الفترات التي يقضيها الولد إلى جانب والديه بعيداً عن أستاذه.

ولما كانت الأم اكثر ملازمة للولد كان أمر تربيته موكولاً إليها ولاسيما في دور الصغر وهو الذي أشد ما يكون فيه عقل الولد مرونة وقابلية للتكيف والتأثر بكل المؤثرات الخارجية فمن الظلم إذن أن تكون الأم جاهلة قوانين التربية لأنها تصبح بذلك آفة على ابنها بما تطبعه في ذهنه من المبادئ الفاسدة والاعتقادات السخيفة التي يصعب أن لم نقل يستحيل نزعها بعد ذلك.

ولكي يتضح لنا ذلك جلياً لنتصور طفلاً بين يدي أُمٍ جاهلة يتلوى من ألم المغص أو التهاب الحلق أو الحمى فتعلق تلك الوالدة في عنقه

الحجُب وتعمل له تعاويذ أو تبخره بالملح وإذا رمد تضع حول رأسه اللفائف وترك الأقذار والأوساخ تتراكم على عينيه اعتقاداً بأن غسلها مضر بهما فإذا كتبت هذا الطفل الحياة وبقي له شيء من قوة البصر شب بين الخدم إن كان من طائفة الأغنياء أو ترك في وهاد الإهمال إن كان من الفقراء، وفي كلا الحالين لا يطرق سمعه إلا الأحاديث المضللة والحكايات الخرافية وقصص الجان والعفاريت فضلا عن الشتائم والأكاذيب. فكيف تكون بربكنَّ حالة هذا الطفل صحياً وعقلياً لا شك أنها تكون حالة تعسة جداً لأنه متى شب على هذه التربية الفاسدة فلا يرجى بعد ذلك أن تصلح المدرسة ما فسد من آدابه، وتقوم ما اعوج من أخلاقه إذ أنى للأستاذ أن يؤثر على ذهنه المتشبع بالجهالة والقحة والبلادة والضلال

لا ريب أن السنين التي يقضيها الولد في المدرسة لا تكفي على طول مدتها لنسخ تلك المبادئ الخرقاء التي رسخت في طبعه وحال قيد الجهل والحمق الموضوع حول عنقه ولذلك يخرج من المدرسة وهو لا يفرق عما كان عليه وقت دخوله إليها إلاَّ بمعرفة قواعد العلوم ومبادئ اللغات التي يشحن بها دماغه شحنا دون أن يستفيد منها أدباً وهو مطابق لقول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والمـاء فـوق ظهورهـا محمـول

فإذا علمنا ذلك كلهُ ورأينا بعض شبابنا وبناتنا من خريجي المدارس يأتون أحياناً أعمالاً وأقوالاً تدل بفسادها وتفاهتها على أنهم ليسوا أرق

عقلاً من الجهلة الأميين والسوقة المتشردين لم يبق لنا سبيل للتعجب منهم كما لم يك لنا حق بلومهم لأنهم أبناء وبنات تربيتهم وما تلك الهيئات التي نشاهدهم عليها في الطرق والمتنزهات إلا صور معكوسة عن أخلاق أمهاتهم.

ولعمري أني لم أر عظة أبلغ من عمل ذلك المجرم وقد اقتيد للإعدام إذ مال على والدته فقطع لسانها اعتقاد بأنه كان السبب في وصوله إلى المشنقة وذلك بما كانت تلقيه والدته عليه من أحاديث الكذب والرياء وما كانت تبثه فيه من روح الشرور والمعاصي حتى أصبح بفاسد تعليمها وشر إرشاداتها أفاكاً قاتلاً ولصاً شريراً وبالحقيقة أن مثل هذا لا يسمى مجرماً بل شهيداً شهيد الجهل شهيد التربية الفاسدة، وما المجرم الحقيقي الذي يستحق الشنق سوى تلك المرأة التي قضى شؤم الطالع على ابنها أن تكون له أماً.

أجل إن الأم على شدة حبها لولدها وعطفها عليه هي التي تسلبه قوة جسده وبهاء طلعته وهي التي تقوده إلى ظلمات السجون وتجره إلى حبل المشنقة..كما أنها هي التي ترفعه إلى أسمى مراقي الكمال وتحيك له ببنانها المترفة أثواب العافية والجمال.

هذا ما جعلته مقدمة الموضوع الذي عزمت على البحث فيه والتبسط في فروعه وأسراره فلنتقل منه إلى.

المطلب الأول : في غاية التربية

إن التربية علم غايته إنماء الخلال الحسنة الموجودة في جبلة الولد واستئصال جراثيم الشر منها على قدر الطاقة. أقول على قدر الطاقة لأن من الصفات الموروثة ما يكون راسخا في طبع الولد رسوخا لا يمكن المربي نزعه مهما بذل من أنواع السياسة في معاملته وضروب الحنكة في تربيته ولكنه يستطيع في الغالب أن يلطفها أو يحولها إلى غايات شريفة حسنة العواقب مثال ذلك إذا كان من طبع الولد العناد والتصلب في الرأي فباستطاعة المربي أن يداوي علة تصلبه بتعويده الحذر والتروي في الأمور قبل البت فيها بحيث لا يكون في إصراره ما يعود عليه بالضرر والندم.

والتربية قائمة على نوعين أولهما تربية البدن بموجب القوانين الصحية وثانيهما تهذيب العقل بحسب النواميس الأدبية، فينبغي أن يسير هذان النوعان عن يمين الولد وعن شماله بخطوات متعادلة من حين ولادته إلى أن يبلغ أشده فإن بدا تقصير في أحدهما فاتت الفائدة المقصودة من التربية وكان مثل الولد مثل من يمشي على رجل واحدة.

ألسنا نرى في كل يوم كثيرين من ذوي البنية القوية والأجسام الصحيحة كالقرويين مثلا يقضون حياة طويلة وهم لا يفرقون عن حيوانات النقل بشكل معيشتهم واقتصارهم من دهرهم على كسر يتبلغونها وأكواخ يأوون إليها. أو لسنا نرى أيضاً كثيرين من الأولاد الأذكياء الذين توفرت اللهم وسائط التعليم والتربية الأدبية يعيشون ضئيلي الأجسام ضعيفي القوى عاجزين عن إدراك كثير من الأماني التي يتمتع بها أترابهم وكانوا

جديرين بها لولا ما فاتهم من صحة البدن وصلابة الأعصاب. نعم إن من الأمراض ما هو موروث كبعض المناقب والشوائب لا يمكن شفاؤه بمجرد العناية الجسدية على أن كثيرا ما يكون مرض الأطفال وموتهم مسببين عن جهل الأمهات قوانين الصحة فإنه يستدل من الإحصاءات الرسمية أن عدد الوفيات يزداد في الأطفال زيادة مطردة على نسبة تأخر الأمة وجهلها قواعد التربية الجسدية. ويسوؤنا القول أن معدل موت الأطفال في القطر المصري أكثر منه في سائر أقطار العالم وفي ذلك دليل واضح على أن فن التربية مجهول عندنا تماماً.

ولا غرو فنحن نرى فتياتنا وشباننا يقدمون على الزواج وكلهم يجهل الواجبات الوالدية تمام الجهل؛ فالشاب المتعلم لا يعرف سوى قواعد العلوم التي التقطها في المدرسة أو الصناعة التي يشتغل بها للقيام بأدواره، والفتاة إما أن تكون أمية جاهلة أو عارفة بالتطريز والعزف على البيانو والتكلم بلغات الأعاجم، فإذا ما رزقا أولادا حارا في كيفية تهذيبهم وأخذا يخبطان في تربيتهم خبطا قد يودي بحياتهم ويفسد أخلاقهم حتى إذا مات أحد منهم قالا هذا (عمره) ومن عاش سقيماً سيء الخلق رديء السيرة قالا تلك (قسمته)، وهكذا يقتل الآباء والأمهات أجساد أولادهم ونفوسهم وآدابهم لقلة اختبارهم وتعرضهم لمهمة لم يسبق لهم علم بها ولم يستعدوا لها.

ومن العجيب أن ما منهم من يتعاطى عملا أو صناعة أو حرفة مهما كانت بسيطة قبل أن يتقن تعلمها أولا فالمحامي لا ينصب نفسه

للمحاماة قبل أن يدرس على الحقوق والفلاح لا يتعاطى فن الزراعة إلا وهو على علم أو على بعض العلم بخصائص المزروعات وقابلية الأرض وتأثير السماد إلى غير ذلك من الاختبارات الزراعية، وهكذا النجار والحداد والخياطة والممرضة وسائر الصناع والمستخدمين فإنهم لا يتعاطون مهنة دون أن يتعلموها أولاً، أما الآباء والأمهات فإنهم يتولون أمر التربية ويسنون لأولادهم شرائع تجري قواعدها على أجسادهم وأذهانهم وهم لا يدرون شيئاً من قوانين الصحة والتربية الأدبية.

وهذا ما دعاني إلى اتخاذ التربية موضوعاً للبحث معكن أيتها السيدات الفاضلات علَّنا بذلك نهتم في إيجاد وسائل لتحسين التربية في المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتى إذا أصبحن يوماً أمهات يدركن ما عليهن من خطورة الواجبات الوالدية فيرتقي بذلك مجتمعنا ويصلح شأن أفرادنا بإصلاح التربية العمومية وتهذيب أخلاق الناشئة على قواعدها الصحيحة.

ومعلوم أننا في عصر انتشرت فيه آيات المدنية الأوربية على ما فيها من المساوئ الكثيرة التي يجهر بها الغربيون أنفسهم والتي كنا في مأمن من أخطارها في عصور الجهالة الماضية فأصبح من المتوجب على الأم حتما أن تسهر على بنيها وبناتها بعين التيقظ والاهتمام وترشدهم إلى السبل القويمة وتنشئتهم على أصول الآداب الراسخة والأخلاق الصالحة التي لا تؤثر بها عواصف الأهواء وأعاصير التقاليد جاعلة أساس تربيتها الشرف الصحيح والصيت الحسن اللذين إذا رسخا في أمر هان عليه كل عزيز في سبيل صيانتهما.

وما أجمل ما وقع تحت بصري في أحد المؤلفات من ملحة حكمية أنقلها إليكن تفكهة وذكرى:

زعموا أن الماء والنار والصيت الحسن اصطحبوا مرة، ثم أرادوا الافتراق فقالوا: "ليجعل كل منا لنفسه علامة نعرفه بها إذا طلبناه"؛ فقال الماء: "أنا أكون حيث تكون الخضرة"، وقالت النار: "وأنا أكون حيث يكون الدخان"، قال الصيت الحسن: "أما أنا فإن من يفقدني فلا يجدني أبداً".

إننا نجد في هذه الملحة أمثولة حسنة يجدر بالأمهات تكرارها على مسامع أبنائهن وبناتهن حتى ترسخ في أذهانهم وتجعل فيهم استعدادا لاقتحام لجة الشبيبة على ما فيها من الأخطار دون أن يلحق بأجسامهم وآدابهم أمراض وأضرار.

والتربية تتناول أدوار الحداثة والصبوة والكهولة وهي إنما تتم في ثلاثة أنواع: النوع الأول «التربية الوالدية» وهو يأتي في زمن الطفولة والحداثة، والنوع الثاني «التربية العالمية» وهو يتناول زمن الصبوة، والنوع الثالث «تربية المرء نفسه بنفسه» وهذه تمتد بقدر استعداد المرء للاكتساب من مخالطة الناس ومعاشرتهم.. وسأبحث في كل نوع منها على قدر الاستطاعة على أني قبل الولوج في الموضوع أبسط لمحة عن حالة الوالدين وما يجب عليهما اتباعه لدى أولادهما بحيث يكون مقامهما محترما لديهم وأوامرهما مطاعة منهم وتعاليمهما وإرشاداتهما مفيدة لهم.

المطلب الثاني: في الوالدين

رأى أحدهم ولداً في طريقه فاجتذب نظره إليه ما رآه فيه من إمارات الطيش والنزق وما كان يقذف به إخوانه ورفقاءه من الشتائم والسباب وما يرميهم به من الحجارة؛ فاقترب منه وسأله: "ما اسمك؟"؛ فأجابه: «شيطان»، قال: "وما اسم أبيك؟"، أجاب: «شيطان»، قال: "وما اسم أمك؟"، قال: «شيطانة»، قال: "وكيف ذلك؟". قال الولد: "إني أسمع أبي يدعو أمي شيطانة، وأمي تسميه شيطاناً وكلاهما يناديني يا شيطان".

ولا بدع فإن الأبوين هما أصل الأسرة، ومن البديهي أن على الأصول ينبت الورق فلا يرجى من الشوك عنب، ولا ينتظر من الشياطين رجال، بل كما يكون الأبوان ينشأ الأولاد. ولذلك فمن أول واجباتهما أن يحترم الواحد الآخر ويعامله باللطف والمعروف حتى يشب الأولاد على احترامهما كليهما، هذا مع وجوب المحافظة على كل لفظة وإشارة وسكنة تبدو منهما ولاسيما بحضرة الأولاد بحيث لا يقتبسون عنهما ما لا يودانه لهم من العادات والأخلاق فإن ذهن الولد أشبه بأسطوانة الحاكي (الفوتوغراف) فهو يلتقط كل شيء يراه أو يسمعه أو يشعر به وخصوصا إذا كان ذلك الشيء صادر عن والديه لما له من الثقة العظيمة بهما فضلا عن مخالطته إياهما وحدهما في زمن الصغر.. والحالة هذه هي المثال الأكبر الذي يتخلق الأولاد بشكله وينسجون على منواله وعليه؛ فأقل ما يلامس أعمال الوالدين من الخطأ والغلط ينتقل على

صورته إلى أذهان الأولاد ويعد لهما ذنبا عظيما يعاقبان عليه في مستقبل الأيام، وذلك حينما يأتي زمن الحصاد زمن يجني فيه الآباء ثمار الحياة التي قضوها في سبيل تربية الأبناء، ويا لها من ساعة رهيبة تتفتت لها الأكباد ساعة يعودون فيها من أولادهم بالخيبة ومن الإنسانية باللعنات.

ومن أفظع الأغلاط التي يرتكبها الزوجان أن يلوم أحدهما الآخر، أمام الأولاد، على هفوة أتاها أو بادرة بدرت منه؛ فإن ذلك يقلل من وقارهما وينقص من ثقة الأولاد بهما، وعلى الوالدين أيضا أن يكونا باشي الوجه طلقي المحيا يعاملان الأولاد معاملة تتراوح بين الشدة واللين بحيث يكونان في كلا الحالين محبوبين منهم ومطاعين في آن واحد لأن الطاعة من أهم أركان التربية ولكنها إذا كانت ناتجة عن خوف الولد من مربيه فهي تفيده لأن تأثيرها لا يتجاوز ظاهر أعماله. فإذا ما حانت له فرصة غياب مربيه أو غفلة منه داس القانون الذي وضعه له غير هياب ولا وجل ولا خير في عمل يأتيه الإنسان مرغماً.

والانجليز من هذا القبيل أقدر الأمم على اقتياد الأطفال بالرفق والحب إلى دائرة الطاعة.. حدثني بعضهم قال: ذهبت مرة لزيارة إحدى الأسر الانجليزية؛ فأبصرت لدى دخولي ابن صاحب البيت وعمره خمس سنوات وكان واقفا على بعد خطوات مني فحييتهُ فرد تحيتي بمثلها من بعيد، ولم تكن تلك عادته؛ فسألته أن يقترب مني فأبى معتذرا بأن أمه أمرته أن لا يتعدى الخط الذي أمامه.. قال ذلك وأشار إلى خط أسود يفصل بين قطع الرخام؛ فسررت من طاعته وأثنيت على أدبه. فمن من

أولادنا يطيع والديه مثل هذه الطاعة التامة التي تعود عليهم بالفائدة وعلى الأمهات بالراحة".

ولكي تستتب السلطة للوالدين ويجتذبا إليهما قلوب الأطفال يجب أن يظهرا بمظهر العدل والإنصاف ويلبسا لكل حالة لبوسها أي أن يستعملا الشدة والعنف حينما يكون الأولاد مذنبين، وفي غير ذلك من الأوقات ينبغي أن يعاملاهم معاملة أصدقاء وأقران. ولا بأس من مباسطتهم وملاعبهم وإهدائهم أشياء تسرهم حتى إذا عوقب الولد يوما بحرمانه تلك الملاطفة والملاعبة يشعر بنغص وألم. وقد يكون في امتناعهما مرة عن تقبيله ما هو أشد تأثيرا عليه من العقاب والضرب

على أن بعض الآباء يزعمون أن التربية تكون بإظهار العنف والقسوة والتلبس بالخشونة والعبوسة فيُرى الأب منهم مقطب الجبين في منزله كأنه آلة للانتقام أو مثال للإرهاب فيجتنبه الأولاد ويتوارى كل منهم في زاوية خوفا منه ورهبة من غضبه لا احتراما له أو حبا به وهذا ما يخالف قوانين التربية.

يحكى عن جلالة إمبراطور ألمانيا أنه على سعة ملكه وعظم جبروته وما عرف عنه من القسوة في معاملة أولاده والتدقيق في تربيتهم، أنه كان يلاعب أطفاله دائما في ساعات فراغه من الأعمال وكثيرا ما كانوا يضعون في فمه (لجاما) ويسوقونه كالجواد، فيركب أحدهم على ظهره ويعمل الآخر فيه السوط وهو يمشي على الأربع مقلدا بذلك الحيوانات بالرفس والنهيق، وأطفاله من حوله يقهقهون مسرورين.

وبشاشة الوالدين في وقت الرضى هي بمثابة مكافأة للأولاد على صلاحهم كما أن استعمال القسوة والصرامة ضروري في تأديبهم وكلا الأمرين لازم في موضعه، ولا يخفى ما للأطفال من رقة القلب ولطف المزاج وسرعة التأثر فلا محسن بالآباء أن يكاشفوهم مصائبهم أو يفاجئوهم بما يثير مكامن سرورهم أو حزنهم بل أن يتجلدوا لديهم على ما يكرهون ويتركوهم في بحبوحة الصفاء يرتعون، ومن الخطأ الفظيع إهمال أكثر أغنيائنا تربية أولاده وتعليمهم بأنفسهم اعتقادا منهم أن ما جمعوه من الثروة والغنى يكفيهم مئونة العلم والتربية؛ فيكل الأب شؤونهم للأم، وهذه تسلمهم العناية الخدم، وقد فاتهم أن المال وحده لا يصير رجالا ولا نساء بل قد يكون معواناً لجملة على الشر لأنه يساعدهم على اتباع أهواء النفس، والنفس أمارة بالسوء، فضلا عن أن عيشة الكسل والرخاء من شأنها أن تصغر الهمة وتحط العزيمة فيشب الولد على الترف والتنعم معتقدا بدوام الحال.. فإذا جاء وقت اضطر فيه إلى العمل لم يكن ذا نشاط وذكاء بل يظل يتخبط في حياته تخبطا يستهلك على الغالب ثروته ويفضي به إلى الفاقة والذل..

وعلى الجملة فإن من أول واجبات الأبوين، ولاسيما الأم التي هي رفيقة الولد أن تكون قدوة حسنة لأولادها لا تأتي ما تريد صرفهم عنه ولا تنهاهم عن أمر وتأتي مثله ولا تعدهم بشيء ثم تنكث بوعدها فإنها بذلك تعلمهم الكذب والإخلاف ولا تأمرهم بطول الأناة والحلم ثم تسخط عليهم لأقل هفوة ربما لا تستوجب الغضب فيتدربون على الحدة والتبرم

وسوء الخلق ومتى عرف الأبوان كيف يملكان طباعهما ويحافظان على مقامهما في الأسرة زال معظم الصعوبة من أمامهما ودانت لهما نفوس الصغار فيصبح في وسعهما حينئذ أن يبثا فيهم روح الفضائل والميل إلى العمل والاقتصاد والاستقامة والحشمة، وبذالك يجدان فيهم يوما رجالا ذوي جد ونشاط يعملون على خيرهم وخير إخوانهم في الإنسانية ويخلصون الخدمة لوطنهم العزيز الذي لا تقوم له قائمة إلا بأمثالهم، ونساء مهذبات مثقفات قادرات على إرضاع الأولاد لبان التربية الصحيحة فيفاخران بهم ويعتزان بآدابهم وفضائلهم.

المطلب الثالث.. في التربية الوالدية

تقسم التربية الوالدية إلى قسمين: بدنية، وأدبية.. وكلتاهما تبتدئان من ساعة ولادة الطفل لأنه متى فتح الطفل عينيه على العالم وبكى، فاحتضنته والدته وأسكتته، أو جاع فأرضعته؛ فعملها هذا يد تربية له وعليه فكلما يبدو فيه من عادات وملكات فهي نتيجة التربية لأن الطفل يولد لا قوام له في ذاته ولا قوة تعينه على معرفة الموجودات مما حواليه، بل هو كأنما التي في تيار هذا العالم وليس له من يقيه من اضطراب أمواجه سوى تلك الأم التي ترأمه وتعطف عليه فيظل في حمايتها متقلبا من حال إلى حال ومن دور إلى دور وهو كلما ترعرع ظهرت فيه نتيجة تربيتها أكثر فأكثر.

وكثيراً ما نجد بين الأولاد من لا يسكت إلا إذا كان محمولاً فلا تستريح والدته إلا متى نام وقد لا يدع لها وقتا للراحة، بل يضطرها متى نام

إلى أن تضعه في حجرها فإذا ألقته على الفراش استيقظ واستأنف الصياح فتظل الأم منهمكة به لا تستطيع أن تأتي عملا آخر في بيتها.. ولا يهنأ له عيش إلا إذا كانت حلمة الثدي في فمه دائما، وكثيرا ما أشطر الأم إلى التعويض عن ثديها بحلمة اصطناعية يتلهى بها الطفل عن إزعاج والدته.

وكذلك نرى في الأولاد من يطيق الاستلقاء على ظهره ساعات متوالية، وهو يناغي ويلعب بيديه بدون أدنى ضجر حتى إذا ما دنا وقت الرضاع بكى وتململ وربما وجد في تيقظ الأم ما لا يحتاج معه إلى البكاء؛ فهذا الفرق الذي نراه في الولدين على ما هو معلوم من مشابهة طباعهما ومطابقة تركيبهما في الأشهر الأولى ليس إلا نتيجة التربية؛ فالأول عودته أمه أن يكون محمولا وأن يأكل في أي وقت وساعة، والآخر عودته أن يكون مستلقيا وأن لا يطلب الغذاء إلا في أوقات معلومة؛ ذلك لأن الأولى كانت إذا بكى طفلها ألقمته الثدي فإذا لم تنجح معها هذه الواسطة حملته وجعلت تخطر به في المنزل فيصيح وهو لا يسكت إلا على الحال التي تعودها، في حين أن أم الآخر كانت إذا بكى طفلها تبحث عن أسباب بكائه فتزيلها فإذا استمر على البكاء تركته وشأنه إلى أن يسكت من نفسه فيعلم من ثم أن الصياح لا يجديه فائدة، وهكذا يدرج الولد على عادات مكتسبة تجعله يتخلق بأخلاق خاصة ويتفرد بأميال تميزه عن غيره من الأطفال..

فإذا كانت تلك العادات حسنة استراح الطفل وأراح أمه من عناء كثير، وكان له من ذلك استعداد لاكتساب أشرف الخصال وحزم على

اقتحام أعظم الأعمال، وهذا ما يثبت لنا أن حياة الإنسان في دوره الأول موكولة لعناية الأم ورعايتها فهي التي تبث فيه روح المبادئ والطباع بحسب ما توحي إليها فطرتها ومكانتها من الاختبار حتى إذا نما الطفل جسماً وعقلاً نمت فيه تلك الأخلاق التي تأسس عليها وتأصلت فيه طباع أمه التي وكلت إليها الطبيعة أمر العناية به والاستئثار بتربيته فهي إذن مسئولة عن سوء أخلاقه ممدوحة على حسن طباعه.

ولا يخفى أن الولد كالغصن الرطب تميل به الأهواء كيفا مالت؛ ولهذا يجب الاعتناء بتهذيبه وتقويمه قبل أن يجف ويتصلب وهو بذلك يختلف عن الحيوان الأعجم الذي لا يحتاج طبعا إلا إلى القوت ولا يدرك شيئا من واجبات التربية سوى ما تدفعه إليه السليقة من العناية بصغاره حتى تبلغ السن التي تمكن فيها من إعالة نفسها والاستقلال عن والديها.

أما الإنسان فإنه مخلوق أدبي قابل للنمو العقلي كما هو قابل للنمو الجسمي، على أن هذا النمو لا يتم من تلقاء نفسه بل يلزم له من يعتني بصحته ويقوّم سيرته ويكسبه من الصفات الحسنة ما يؤهله للأعمال السامية ويعظم ثقة الناس به ورضاهم عنه لأنه لا غنى للواحد عن الكل بل كل مفتقر إلى أن يكون له علاقة مع بني جنسه فإذا لم يكن حاويا من شروط التهذيب والاستقامة ما يؤهله للدخول بينهم والتعامل معهم سقط وكان ضربة على والديه ومصيبة على المجتمع الإنساني.

ولطالما رأينا من السيدات من لا تحسن سياسة الصغار لجهلها قواعد التربية فيشب أولادها على التمرد والعصيان وقد اتصل الأمر

ببعضهم أن يكيل لوالدته الصاع صاعين ويعيد إليها الشتيمة شتيمتين والضربة ضربتين وهي مع ذلك تبسم له استحسانا ناسبة ما قاله إلى الأطوار الصبيانية؛ فيحول اعتقادها بذلك دون عقابه، وعلى هذا تنتظر بلوغه السن التي فيها يعقل معنى تلك القبائح فيعدل عنها من تلقاء نفسه، وفاتها أن من شب على خلق شاب عليه وأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر.

وقد يتصل العجز بالأم إلى ما وراء ذلك فتتوعد ولدها بشكايته إلى أبيه كلما أتى ذنبا حتى إذا حضر ذلك الوالد المسكين متعبا منهوك القوى الجسدية والعقلية أخذت تزيد في همومه وتضاعف متاعبه بسرد عيوب ابنها وتقبيح أعماله وحينئذ فإما أن يغطي الأب عن مساوى ابنه اكتفاء بما يساوره من الهموم الخصوصية، وبذلك تسقط منزلة الأم في عيني الولد لما يراه من عدم اكتراث أبيه بكلامها وشكايتها، أو يهيج غضب الأب لما هو عليه من التعب والانفعال فيؤنبه بعنف ويضربه بقسوة لأجل ذنب سلف أو إطفاء النيران غضبه.. وفي كلتا الحالتين لا تفيد العقوبة الولد بل يتعلم منها احتقار والدته التي يجدها قاصرة عن تربيته بنفسها وكراهة والده الذي يعاقبه على ذنب مضى وبقسوة وحشية لوفرة الذنوب التي تبلغها عنه.

ومعلوم أن الولد لا يشعر بوقر الذنب إلا ساعة ارتكابه إياه ثم يزول هذا الشعور بزوال احمرار وجهه، ولولا ذلك لما كان يخطئ ثانياً وثالثاً إلى ما شاء صغر سنه فعاقبته إذن واجبة على أثر كل ذنب يأتيه وإلا

عدها ظلماً وعدواناً وأضمر بسببها كرها لوالديه وحقد عليهما فإذا شب كان عقوقا عاتيا لا يحترم لها إرادة ولا يشعر نحوها بانعطاف وحنان.

هذا فضلا عما تجده الأم من التعب في سياسة أولادها مدة غياب أبيهم إذا كانوا لا يهابونها مثله ولا يطيعونها كما يطيعونه ولما كان الأب يغيب عادةً النهار بطوله كانت هي في عذاب دائم وعليه يجب أن تتولى هي بنفسها تربية الأولاد من عقاب ونصح وإرشاد متخذة لكل من بنيها وبناتها ما يوافق طباعه وأخلاقه من وسائل التهذيب، ومتى فعلت ذلك نالت السلطان المطلق على أفكارهم وإرادتهم وتمكنت من تربيتهم تربية حسنة واستراحت من أتعاب كثيرة فإن الأم الراقية التي تعرف واجبات الأمومة تستطيع أن تربي أولادها بدون مشقة كبيرة مهما كانوا كثرا، وتقدر مع ذلك أن تقوم بأشغال أخرى عديدة كالأعمال المنزلية والدرس والمطالعة وغير ذلك من الأعمال النافعة ومما يساعدها على ذلك رابطة الألفة وعامل الحب الطبيعي بينها وبين أولادها؛ فإذا عرفت كيف تستعمل تلك العواطف في سبيل فائدتهم خضعوا لها وكانت ثقتهم بها غير محدودة إذ لا ينكر ما للحب من السلطان على المخلوقات وما له من التأثير على القلوب والأفكار.

ولما كان الولد يميل بالطبع إلى والدته أكثر من سائر الناس فهو لا يرى إلا رأيها ولا يتبع إلا إرادتها، وعليه فلا يجمل بالأم أن تهمل الاستفادة من هذه الثقة وتكل أمر العناية بأولادها إلى الخدم الذين يجهلون قوانين التربية، بل إذا كان فيهم من يعرفها فمن أين له نظرات الأم المؤثرة وابتساماتها الحلوة التي قد يكون منها أصدق مهذب

وأحسن رادع عن الشر، بل من أين له الحنان الوالدي الذي يجمع الصغار تحت جناح الحب والإنصاف، ويلحم فيما بينهم بلحمة الإخاء والوفاق بحيث لا يكون ثمة تحاسد أو تباغض بل يهتم كل من الإخوة بتقديم مصلحة أخيه على مصلحة نفسه.

أما الأطفال الذين يحرمون هذه العناية فيشبون وهم أعداء لأنفسهم ولغيرهم لا يميلون على الإطلاق إلى نفع سواه وإنما هذا الميل ينمو فيهم تدريجيا بعناية والديهم حتى بلغوا طورا يرون فيه لزوم خدمة غيرهم ويقدرون الفائدة التي تقرر عليهم منها حق قدرها فيقومون بها عن طيب خاطر ويعملون الواجب عليهم نحو إخوانهم الذين تجمعهم وإياهم جامعة البشرية.

وإليكنَّ ما قالهُ شاعرنا الكريم حافظ أفندي إبراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق

الأم روضة إن تعهده الحيا ... بالري أورق أيما إيراق

الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

إلى أن قال:

ليست نساؤكم حليًّا وجواهرًا ... خوف الضياع تصان في الأحقاق

ليست نساؤكم أثاثًا يُقتني ... في الدور بين مخادع وطباق

إلى أن قال:

ربوا البنات على الفضيلة إنها ... في الموقفين لهنَّ خير وثاق

وعليكم أن تستبين بناتكم ... نور الهدى وعلى الحياء الباقي

المحاضرة الثانية

التربية البدنية

إن من يذهب إلى المعرض الزراعي الذي يقام سنويا في القاهرة ويشاهد ما يعرض فيه من العجول المسمنة والخيول المطهمة وسائر الحيوانات التي يدل على ظاهرها عناية أصحابها التامة بتربيتها ونظافتها، ويقابلها مع كثير من الأولاد الفقراء المتروكين لأيدي الجهل ورحمة القضاء يدرك حالا أن أكثر الأولاد ولاسيما في الطبقة المنحطة هم أقل حظا من أولئك الحيوانات لأنهم ينشأون في أحضان القذارة وزوايا الإهمال معرضين لتأثير البرد والحر وسائر المؤثرات الطبيعية يغطي الذباب عيونهم وتفتك جراثيم الأمراض بأبدانهم فتودي بكثير منهم، ومن عاش منهم كان سقيماً هزيلا ضعيف البصر والبصيرة أو كفيفهما لا يستطيع أن يأتي عملا يحتاج فيه إلى الحزم والنشاط من الصناعة والتجارة والزراعة وغيرها من الأعمال التي يقوم عليها نجاح الأمة وثروتها وارتقاؤها، وكذلك النساء فإنهن لا يتمكن من القيام بواجباتهن الطبيعية والمنزلية حق القيام.

ولو أنصف والدو هؤلاء الأطفال المتروكين لخصوهم بجانب من عنايتهم بالحيوانات استنادا إلى نواميس الطبيعة التي تجري أحكامها على جميع أنواع الحيوان بغير استثناء سواء فيها الحصان والإنسان لأنهما في الحقيقة واحد من حيث الاحتياج إلى أسباب النمو وإطالة الحياة.. هذا

إذا لم تقل أن الإنسان أحوج لعناية لما أنه يكون ضعيفا جدا حين ولادته ثم ينشأ ويتقوى رويدا رويدا، ولذلك وجب أن يداري ضعفه طفلاً ثم يعود بدنه شيئا فشيئا على ما يطيقه ويلائم سنه من التأثيرات.

على أنه قد رسخ في أذهان الكثيرين أن العناية الصحية مضرة بالأولاد لأنها تدعو إلى الرفاهة المرهلة للأبدان، وأنه أفضل للأولاد إن تركوا وشأنهم لعناية الطبيعة واعتياد تأثيراتها مقدمين شواهد على مدعاهم بعض أفراد نشأوا على إهمال قوانين الصحة وإغفال ترتيب المعيشة، ومع ذلك فهم أقوياء لا تؤثر فيهم العوارض الخارجية التي تؤثر في سواهم من المرفهين.. أجل إن كثرة الرفاهية تدعو إلى الضعف وتجعل في الجسم استعدادا للإصابة بالأمراض، وهي ليست في شيء من قواعد الصحة، وإنما الصحة تقوم بالمبالغة في النظافة وحسن اختيار المسكن وترتيب نظام المعيشة مع التعرض للتأثيرات الجائزة تخشينا للأجسام وتقوية الأعصاب، وهذا غير الإهمال الذي يسبب كثرة الوفيات والابتلاء بأنواع الرمد والحميات وغيرها من الأوبئة الفتاكة..

فلكي تصان الأجسام من غوائل الأمراض والأسقام لا بد من الاهتمام بها في الصغر لأنه إذا استحكمت حلقات الضعف بالإنسان وهو طفل تسربت إليه الأمراض في الكبر بحيث لم يعد ينجح فيه علاج أو دواء، وعلى ذلك يكون أمر العناية بالأطفال محصوراً بالأم وحدها لأنها هي التي تلازم الطفل وترضعه وتقوم بغسل جسده وترتيب ملابسه والسهر على صحته لا يشاركها الزوج في ذلك لأن عليه واجبات أخرى

تستغرق جميع أوقاته، فلا يمكن أن يساعدها في خدمة الأطفال بل من الضرورة أن يترك ذلك لعنايتها، وهذا ما جعل الغربيين يهتمون اهتماما عظيمة بتربية المرأة وتعليمها إذ أنها هي المربية لرجال المستقبل وعلى نسبة حسن تربيتها يكون تقدم البلاد وتأخرها، وعلى ذلك نرى أن البلاد مدينة للأمهات.

ولا يخفى أنه متى كانت الأم عاقلة مهذبة وأحسنت العناية بصحة ولدها والسهر عليه فإنه يشب وفيه من القوة والنشاط وصفات الرجولة والإقدام ما يدفعه إلى تسلم أعلى المناصب ويؤهله إلى اقتحام معترك الحياة والفوز بالغنيمة التي ينشدها، وأما إذا كانت الأم جاهلة فإنها تجازف بحياة ولدها وثمرة أحشائها ليس بإهمال ترتيب معيشته فقط بل بتعريضه لأمراض كثيرة بما تمسك به من الاعتقادات الفاسدة والأوهام الخرافية كترك الأقذار متراكمة عليه ردا للعين واستعمال كثير من العلاجات التي يصفها الدجالون المحتالون وجاراتها العجائز، وهذه العلاجات إذا لم تمت الطفل فإنها تهدم جسمه وتفسد ذوقه فيشب ضعيفا قليل الحزم جبانا عديم الهمة معدا للإصابات المرضية والاضطرابات العقلية، والولد إذن صنيعة الأم وفرع منها بل نسخة عن صورة أخلاقها ونسمة من حياتها فلنبحث في واجباتها نحوه وكيفية اعتنائها به.

المطلب الرابع : في تدبير الطفل عند ولادته

إن أول ما يجب الاهتمام به في تدبير الأطفال عند ولادتهم هو النظافة التامة لأنها لازمة لسلامة أجسادهم ودفع الأضرار عنهم؛ فعقب

ولادة الطفل يجب غسله حالا بماء فاتر، ويستدل على حرارة الماء بوضع الكوع فيه حتى يشعر بأنه أعلى من حرارة الجسم بقليل، وكذلك الصابون فإنه لازم لنظافة الطفل، وإنما ينبغي التمييز بين أنواع الصابون فإن منه ما يؤثر على بشرة الطفل تأثيرا رديئا لكثرة ما فيه من المواد القلوية، وحذار من إيصال الصابون إلى عيني الطفل فإن ذلك يحدث فيهما التهاباً وألماً لا تحمد عاقبته.

وليكن معلوماً لدى الأمهات أن استعمال الماء لغسل الأطفال عند ولادتهم لا تبعث على الخوف، بل تفيد الصحة فائدة عظيمة وتقوي الأجسام وتبعد عنها الأضرار والجراثيم التي تهدد حياة الطفل في كل آن، وكم من أطفال تتسلخ أجسامهم وتضعف قواهم وتسلط عليهم الأمراض من تراكم الأقذار وأدران الأوساخ.

وأكثر الأمهات الشرقيات يدهن الأطفال عقب ولادتهم بماء مذاب فيه ملح اعتقادا بأنه يمنع التسلخ من الجلد والتشقق؛ فهذا خطأ كثيرا ما نبه إليه الأطباء لأنه فضلاً عن عدم فائدة الملح للطفل فهو يؤثر على بشرته البضة تأثيراً لا يستطيع الكبار احتماله فضلاً عن الأطفال.

ولا يجوز غسل الطفل بالأيدي بل بإسفنجة ناعمة أو بقطعة من الفانيلا ثم يلف بقطعة دافئة من القماش الناعم وتمسح أذناه ومنخراه بقطعة من القطن المطهر ملفوفة على بعضها لا بواسطة دبوس أو شيء صلب، ثم يترك مقدار عشرين دقيقة يتناول في أثنائها اللبن إلى أن تعود حرارة جسمه إلى الحالة الطبيعية فلا يعود يتأثر من البرد، ثم يلبس

ملابسه بعد أن يذر على جسمه مسحوق الأرز أو النشاء، والحذر من استعمال (الأسبيداج) الذي تستعمله بعض النساء فإنه مركب رصاصي شديد الضرر.

وقد جرت العادة أن تقام حفلة للطفل ووالدته النفساء في المنزل عند تمام الأسبوع على ولادته فهذا فضلا عما فيه من الضرر للأم، فإنه يزعج الطفل كثيرا لأنه لا يجوز إخراج الطفل من غرفته قبل أن يتم الأسبوعين، وإليكن ما جاء في كتاب "العناية بالأطفال" بهذا الصدد:

"لا يجوز أن يخرج بالطفل من غرفته قبل الزمن الذي يؤهل جسمه لتحمل الهواء، والأفضل أن يخرج به تدريجيا؛ فيؤخذ حينما يصير ابن أسبوعين من غرفة إلى غرفة أخرى هواؤها أبرد قليلا حتى يتدرج على تحمل الهواء من غير أن يلحق به ضرر"

وقد أجمعت آراء الأطباء على وجوب اتقاء الضوضاء والأصوات المزعجة حول الطفل؛ فإنها تسبب له انزعاجا عظيما، ولا بدع فإننا نرى الطفل عند ولادته يستهل بالصياح مما يدل على تألمه لتغيير البيئة عليه وملامسة الهواء جلده ونفاذه إلى مسالك التنفس حتى أقصى حويصلاتها وتأثير أشعة النور على شبكيته إلى غير ذلك من الأمور الغريبة عنه والمؤثرة فيه؛ فلا يصح أن يضاف إليها ما يزيد في اضطرابه كالجلبة والصياح والدق بالهاون عند رأس الطفل إلى غير ذلك مما يفعله بعضهن فإن كل ذلك يورثه اضطراباً قد يفضي به إلى البله والجنون.

ومما يجب الانتباه إليه وضع سرير الطفل بعيداً عن مجاري الهواء

وتغيير مكانه من وقت إلى آخر بحيث لا يقع النور عليه من جهة واحدة دائما فيجتذب نظره إليها ويسبب له حولاً أو انحرافاً في الجمجمة.

المطلب الخامس.. إرضاع الطفل

إن أفضل غذاء جهزته الطبيعة للطفل هو لبن الأم لأنه مركب بشكل يصلح لتغذيته ويساعد على نموه متدرجا معه بالكثافة التي تلائم تدرجه بالنمو والقوة، ولذلك ينبغي أن ترضع الأم طفلها بنفسها، ولا يجوز أن تتخلف عن إرضاعه إلا لمانع صحي لأنها قل أن تجد مرضعاً يلائم لبنها حالة طفلها وصحته وسنه، أما إذا اضطرت الأم للاستعانة بمرضع؛ فمن الواجب أن تعول في انتقائها على الطبيب، ومن ثم فلا ينبغي أن تترك الطفل لعنايتها وحدها مهما كانت مستجمعة من شروط الصحة والملائمة لأنه قد يطرأ عليها عوارض في مدة الإرضاع تجفف لبنها أو تنقصه فتضطر بحر الحاجة إلى كتمان أمرها خوفا من أن تطرد من خدمتها أو أن تفقد راتبها فتداري الحال بإطعام الطفل بعض أطعمة صمغية أو لبابة الخبز أو غير ذلك مما يصعب هضمه على الطفل ولا يقوم بغذائه، فلا تدري الأم إلا وقد هدم جسم ابنها ولزمتهُ الأسقام والعاهات التي يصعب أو يستحيل شفاؤها..

وقد شاهدت أولاد كثيرين سقيمي الأجسام ضعيفي الأعصاب إلى حد الشلل تبدو فيهم دلائل البله وقلة الإدراك، ولدى التحقيق وجدت أن أسباب ذلك جميعها ناتجة عن عدم صلاحية الغذاء وانصراف الأم عن الاعتناء بولدها والسهر عليه كما يقضي عليها واجب الأمومة مسلمة

أمره إلى امرأة غريبة لا تعرف شيئا من قوانين الصحة ولا تشعر بعاطفة الحنان التي تدفع الأم بدافع السليقة لرعاية الطفل.

أما التغييرات التي تطرأ على اللبن فمنها ما يكون ناتجة عن مرض ومنها ما يكون عن نقص طبيعي لغير علة ظاهرة، وأحيانا قد ينتج عن الانفعالات النفسانية كالخوف والحزن والغضب، ومهما كانت هذه الأسباب فهي تؤثر في اللبن فتنقصه أو تغير تركيبه فتجعله عسر الهضم، وفي بعض الأحوال سما ناقعا يقتل الطفل سريعا، وعلى ذلك أشير على الأم – سواء كانت هي التي ترضع الطفل أو امرأة أخرى غيرها – أن تستعين بالرضاعة الصناعية التي سأفيض البحث عنها لما قد يطرأ على المرضع من الأسباب المانعة لها من الإرضاع فلا تكون ثمة حياة الطفل رهن تلك الحوادث وهدفا لسهام الأقدار، هذا فضلا عن أن الغذاء الصناعي يجعل الولد في مأمن من تغيرات لبن الثدي، ويوفر الراحة الأم أيضا ويجعلها في حل من التقيد الدائم بولدها بحيث تستطيع تركه بضع ساعات عند الاقتضاء إذا كانت هي التي تتولى إرضاعه..

ويقلل من كبرياء المرضع واستبدادها إذا كانت امرأة مأجورة، وليس منا من لم تعان أو تسمع بأخبار المراضع وما تحمله الأمهات من مر العذاب في سبيل مداراتهن والصبر على مساوئهن، وذلك إكراما للطفل الذي لو تخلت عنه المرضعة مات جوعاً، ولا متى كان بالغا السن التي يميز فيها بين الأشخاص فانه يأبي حينئذ قبول ثدي غيرها وهناك الطامة الكبرى والمصيبة التي تجبر الأم على الإذعان لأحكام المرضع وإرادتها

مهما كانت قاسية.. أما إذا تعود الطفل الرضاعة الصناعية واتضح للمرضع إمكان الاستغناء عنها في أي وقت لتغيرت حالها وكان شأنها غير ما ذكرت من الاستبداد وسوء المعاملة.

الرضاعة الصناعية

لقد أجمع مشاهير الأطباء على أن أفضل نوع من أنواع التغذية الصناعية هو لبن البقر ممزوجا بالماء على مقادير تقل كلما تقدم الطفل بالعمر، ويعطى بزجاجة بسيطة الصنع ملساء الباطن لكي تنظف بسهولة فلا يبقى أثر للبن فيها بعد الرضاع، وتركب عليها حلمة متسعة الجوانب تسهيلا لقلبها وغسلها من الداخل، وقد استعاض الناس في أميركا الآن عن الزجاجة بفنجان من الفخار الصيني ذي أنبوبة منحرفة تركب عليها حلمة الإرضاع وهو سواء كان زجاجة أو فنجانا فغسله واجب قبل الاستعمال بحيث لا يبقى فيه أثر للبن القديم فيكون سببا في إفساد اللبن الجديد وخطرا على حياة الطفل.

وأفضل طريقة لغسل الزجاجة هي أن يبرش الصابون ناعما ويغلى مع الماء إلى أن يذوب فيحفظ في وعاء لحين الحاجة، وحينئذ يسكب منه قليل في الزجاجة المراد تنظيفها وترج هنيهة ثم تغسل بالماء البارد جملة مرات إلى أن يزول أثر الصابون منها، وعلى الأم أن تباشر ذلك بنفسها حرصا على حياة طفلها من جهل الخادمات وإهمالهن، والأفضل أن يعطى اللبن فاترا محلى بقليل من السكر ليشبه بذلك لبن الثدي ويكون مقبولا من الرضيع.

غش اللبن

ومن أهم الشروط الصحية أن يكون اللبن جديد وخاليا من الجراثيم المرضية، والأفضل أن يؤخذ من ضرع البقرة رأساً، وذلك إما بإحراز بقرة في المنزل أو بابتياع اللبن من الذين يطوفون في الشوارع بالبقر ويحلبونها على الأبواب أمام ربة المنزل فإنه أفضل للتغذية من اللبن الذي يباع في الأسواق والذي قد يكون ممزوجا بلبن الجاموس ولبن الماعز فيحصل اختلاف في تركيبه لا تحمد عاقبته، فضلا عن الأقذار التي يحملها من الآنية التي يوضع فيها فإن من يقف على ضفاف الترع والمستنقعات ويعاين القرويات وهن يغسلن آنية اللبن بذلك الماء القذر الذي تشرب منه الحيوانات وتطفو على وجهه الجثث يدرك حالا مقدار الخطر الذي ينجم عن الاغتذاء باللبن الذي يوضع فيها هذا فضلا عن الغش الذي يعمد إليه تجار اللبن في قطرنا واستخراج قشدته ومزجه بماء النشاء والطباشير ليحفظ قوامه ولونه والقرويات يمزجنه بماء الترع فيزداد الضرر بما تحمله تلاك المياه من جراثيم الأمراض.

غلي اللبن

ولغلي اللبن طرق كثيرة يطول في شرحها، وأفضلها التعقيم، وهو أن يستعمل لذلك جهاز من الصفيح ذي غطاء محكم يشتمل على زجاجات وحمالة لوضعها فيها وعند التعقيم توضع زجاجات اللبن في الجهاز مسدودة سدا محكما ويملأ الجهاز إلى حد مبين في باطنه ويوضع على النار حتى يبلغ درجة الغليان فينزل عن النار وتؤخذ منه الزجاجات وتحفظ في مكان بارد لحين الاستعمال.

ترتيب أوقات الرضاع

من الواجب أن يرضع الطفل في أوقات معلومة سواء كان الإرضاع طبيعيا أو صناعيا، وأن يكون بين كل نوبة وأخرى فسحة كافية للهضم، ويقتضي لذلك ساعتان أو أكثر في مدة الثلاثة أشهر الأولى وثلاث ساعات في الأربعة أشهر التي تليها وأربع ساعات فما بقي إلى الشهر التاسع أو العاشر وحينئذ يمكن فطامه إلا إذا كانت حالته الصحية لا تسمح له بذلك فيوالى إرضاعه إلى آخر الحول الأول.

كمية الغذاء

أما كمية الغذاء فتختلف باختلاف عمر الطفل وحالته الطبيعية، والأفضل أن يعول على قابليته في تقدير الكمية التي يحتاج إليها في كل وجبة متى كان الطفل صحيح الجسم ويرضع في أوقات مرتبة فهو ترك الثدي أو الزجاجة من تلقاء نفسه متى شعر بالشبع إلا إذا أرغم على الاستزادة من الغذاء فقد يفعل ويكون له من وراء ذلك ضرر عظيم فضلا عن أنه يعتاد الشراهة في الغذاء.. ولا شك في أن الطفل الذي يجوع لا بد أن يعطش أيضا، وذلك حسن بأن يعطى ملعقة صغيرة من الماء الفاتر بين فسحات الرضاع وخصوصا في أيام الحر فتروي ظمأه وتجعله يكف عن البكاء، وهي خير من إرضاعه كلما بكى لأن إدخال الطعام على الطعام يثقل على المعدة ويعطل وظيفة الهضم.

وأما الماء فإن له فائدة أخرى غير فائدة الإرواء، وخصوصاً في أثناء الأسابيع الأولى وهي إراحة الكلى وإنقاذها من كثير من الأمراض.

تناقص اللبن

ومن المعلوم أن المرضع يجب أن تعتني بغذائها كي يجود لبنها ويصلح للتغذية على أن من المراضع المأجورات من تكون فقيرة لا تسمح لها الحال بتذوق الطعام الفاخر فإذا ما خدمت في بيوت الأغنياء لا تلبث أن تفرط بالأكل إلى حد البشم فتصاب بسوء الهضم الذي يفضي إلى نقص اللبن أو جفافه تماما، ولذلك يجب على الأم أن تلاحظها بالعناية الدقيقة فلا تدعها تتجاوز في طعامها المقدار اللازم.

وكثيراً ما تكون الأم قوية الجسم صحيحة البنية، ولكن لبنها قليل أو ناقص المواد الغذائية فعليها أن تلاحظ ذلك من عدم نمو الطفل النمو الكافي ومن التجائه إلى البكاء غالبا فيجب في هذه الحالة أن تكف عن إرضاعه من ثديها حالا لئلا يهزل ويسقم، وتضطر أخيراً لتغذيته بلبن البقر حين لا يكون معتادا شربه فلا يقوى على هضمه، وتزداد صحته تأخرا على تأخر، خير للرضيع أن يغذى بالرضاعة الصناعية منذ ولادته من أن يفاجأ بها بعد أن تضعف معدته ويعتل جسمه لسبب نقص الغذاء.

الفطام

لقد اعتادت الأمهات على فطام الأولاد فطاما فجائيا، أنهنَّ يفصلنَ الولد عن ثديهنَّ دفعة واحدة ويباشرن تغذيته بالأطعمة المختلفة، وقد يطعمنه من المآكل الغليظة التي قد لا تهضمها معدة الكبار فضلا عن الصغار، ولا يخفى ما في هذا التغيير الفجائي من التعب وما ينجم عنه من الاضطراب في معدة الطفل وسوء الهضم الذي قد ينتهي بأمراض

كثيرة.. هذا فضلا عما يحدث للطفل من الآلام النفسانية لحرمانه من لذة الرضاع فجأة، وما يظهر عليه من التغيظ والحقد حتى أنه في أكثر الأحيان يقلق الأسرة بصراخه، ويلجئ الأم إلى الاختباء منه متحملة هم سياسته ومهاراته فوق ما يؤلمها من احتباس اللبن بثدييها؛ فاجتنابا لكل ذلك يتدرج الطفل على الأكل قبل الفطام بثلاثة أشهر بحيث تألف معدته الغذاء، ويقل رضاعه تدريجا فلا يصاب بعسر الهضم ولا تشكو والدته من احتقان الثدي على أثر الفطام، وهنا تظهر فائدة الرضاع الصناعي فإنه إذا كانت قد سبقت للطفل عادة به لم يتأثر من انفصاله عن الثدي بل يجد في زجاجته خير عوض يتغذى به إلى أن تصير معدته قادرة على هضم الأطعمة الأخرى.

ومما يفيد الطفل في طور الفطام: عصير البرتقال والعنب مع الماء يتناوله بملعقة.. أما الأطعمة النشائية فإنها ثقيلة على المعدة، ولاسيما ما كان منها ممزوجاً بالسكر فانهُ يستميل الولد إلى الإكثار منه وتحميل أنسجة جسمه أكثر مما تحتاج إليه من العناصر السكرية والنشائية فتسوء صحته.

المطلب السادس : كسوة الطفل

خير الثياب للأطفال ما كان خفيفا واسعا لا يثقل على أجسامهم اللطيفة ولا يعاكس حركاتهم اللازمة لنمو أجسامهم، وفي أيام الحر يستعمل الملابس نسيج القطن أو الكتان اللين، أما في الأيام الباردة فينبغي تلبيسهم ثياباً صوفية ناعمة اتقاءً من تغييرات الجو الفجائية، والأفضل أن يكون نسيج الثياب خالياً من الأصباغ، ويكون زيها بسيطاً

مجرداً من الزخرف بحيث يمكن غسلها كلما اتسخت فلا تجتمع المكروبات في ثنياتها.

ومن العادات المستهجنة عندنا: لف الطفل بالأقمطة لفاً مشدوداً؛ فمن الواجب أن تتجنب الأمهات هذه العادة السمجة؛ لأن الأقمطة تضغط على صدر الطفل وأمعائه وتعيق دورة الدم وحركة التنفس، وكثيرا ما يتسبب عنها موت الطفل وذهابه شهيد العادة؟

ومما يجب المحافظة عليه أيضاً أن تدفأ رجلا الطفل دائماً فقد قرر أحد مشاهير الأطباء الانجليز أن تدفئة الأرجل للأطفال تدفع عنهم أمراضا كثيرة، أما عادة تغطية رأس الطفل في البيت فغير محمودة العاقبة، وأقل ما فيها من الضرر استحكامها من الطفل بحيث لو أهمل استعمالها يوما أو ساعة أصيب بنزلة أو زكام أو غيرهما من العوارض.

أنواع الثياب

تتألف ثياب الطفل من قمص وعناتر تغطي جسمه حتى أسفل بطنه ويحزم فوقها بحزام من النسيج اللين مقصوصا بانحراف لكي يتكيف مع تحدب البطن، دون أن ينال الطفل ضغط كثير، ويجب أن يكون الحزام عريضا يغطي البطن وأسفل الصدر ويلبس الطفل فوق هذه أثواب طويلة للنهار تغطي رجليه في مدة الأشهر الأولى، أما في الليل فيلبس قميص واسع طويل أيضا والأفضل أن يكون القميص مفتوحا من الوراء كي يسهل تلبيسه للطفل، وقد تحسن الأم صنعا إذا أدخلت أكمام القميص في أكمام الثوب وألبستهما للطفل دفعة واحدة كي لا تتجعد الأكمام الداخلية فتقلق راحة الولد في نومه.

ومن المعلوم أن الطفل حينما يلقى على سريره مستيقظاً ويشرع في تحريك يديه ورجليه يرتفع ثوبه وتنكشف رجلاه؛ فاجتناباً لذلك تجذب أطراف الثوب وتربط بحيث يصبح الطفل كأنه في كيس، ولكن يشترط في الثوب أن يكون طويلا كي لا يضايق الطفل في حركته.

وكذلك الحزام فإنه كثيراً ما يرتفع إلى ما تحت الإبطين ويبقي البطن عاريا معرضا لتأثير البرد وما ينجم عنه من المغص والإسهال؛ ولذلك يعمل له تعليقة من القماش نفسه من الجهة الخلفية تجذب إلى حفاظ مصنوع من القماش اللين بشكل مربع ويثنى من جهتيه حتى يصير مثلث الزوايا ثم يشد طرفاه العلويان حول بطن الطفل ويضم إليهما الطرف الثالث من بين الفخذين ويثبت الثلاثة فوق طرف الحزام من الجهة الأمامية بدبوس إنجليزي.

ثم أنه يجب تدفئة الملابس قبل استعمالها ولاسيما في الشتاء، ومن الضروري نزع ملابس الطفل عند النوم وإذا اضطرت الحاجة الأم إلى استعمال الملابس القليلة لضيق ذات يدها فما عليها إلا أن تنزعها عنه في المساء وتنشرها في الهواء حتى يتطاير ما عليها من رائحة الجسم والعرق وفي اليوم الثاني تلبسها للطفل بعد أن تنزع عنه ملابس النوم.

غسل الملابس

تغسل الملابس بالماء والصابون، ثم تشطف جيدا بالماء البارد حتى يزول أثر الصابون تماماً وإلا أثر بالجلد تأثيراً سيئاً، والحذر من استعمال الصودا فإنه يسبب تسلخاً في الجلد؛ ولذلك يطلب من الأم أن

تلاحظ بنفسها غسل ملابس طفلها حتى تحفظ حياته في هناء وسلام.

وعندما يبلغ الطفل الشهر السادس تستبدل بثيابه الطويلة أقصر منها لا يزيد طولها عن الكعبين، وتستبدل أيضا بجواربه القصيرة جوارب طويلة تغطي الركبتين، وحينئذ يمرن الطفل على لبس الأحذية اللينة التي لا نعل لها حتى إذا بلغ السن الذي يمكنه فيها المشي في الطرق يستعمل له أحذية عريضة لا تضغط على أصابع رجليه، ويكون لها نعل خفيف يقي الرجل من الرطوبة ومصادمة الحجارة.

ومن الضروري أن يكون الحذاء يمينا وشمالا بحيث يلائم شكل الرجلين الطبيعي، وهذا أمر قلما يبالي له الناس مع أنه ضروري جداً الراحة الأطفال وصيانة أقدامهم من التشوه وينبغي أن يغطي الكعبين (الكاحلين) ويربط من الأمام بالعرى والشريط من غير أزرار.

صدرة لاستقبال اللعاب

يكثر سيلان اللعاب عند الأطفال في الأشهر الأولى فتبتل الثياب ويصاب الطفل بالنزلات والالتهابات الشعبية بما يناله جسمه من الرطوبة، وعلى ذلك ينبغي استعمال صدرة لاستقبال اللعاب تصنع من الكتان وتبطن بالمشمع منعا لنفوذ الألعاب إلى الثياب وهي تكون مستديرة الأسفل تربط حول العنق وتتدلى فوق الصدر.

وحينما يبتدئ الطفل بالحبو يصنع له ثوب على شكل كيس تقريبا يلبس فوق الثياب لوقايتها من الوسخ الذي ينتج من الحبو على الأرض،

وهذا الثوب يسد من قاعدته وتترك فيه فتحتان للقدمين تبعد الواحدة عن الأخرى نحو خمسة عشر قيراطاً وأكمام طويلة تقفل على الرسغ (المفصل).

ومن قوانين الصحة أن تغطي الثياب جميع أجزاء البدن ما عدا الوجه وأطراف اليدين على أنه قد سرت إلينا عادة سيئة من الإفرنج، وهي تعرية الذراعين والساقين بحجة أن الهواء يقويها وهي حجة واهنة بإقرار علمائهم أنفسهم، ومن أيسر مضارها أن البرد إذا مس ذراعي الولد قد يمتد تأثيره إلى صدره فيصبح في خطر من الأمراض الصدرية، وهكذا الساقان فإن البرد يسري منهما إلى البطن فيسبب المغص والإسهال، فضلا عن أنه إذا سقط الولد على الأرض أثناء لعبه أو رياضته، وكانت ساقاه عاريتين جرح جلده، وانسحجت بشرته لتعريها مما يقيها. أما إذا كان الحر شديدا فلا بأس إذا جعل لباس الذراعين من نسيج دقيق مع الاحتراس التام من التعرض للبرد لأنه مضر بالصحة في أي زمن اتفق..

وفي الجملة ينبغي أن تراعى القوانين الصحية في أمر كسوة الصغار كما في الكبار إن لم نقل أكثر لما يحتاج إليه الطفل من كثرة الاعتناء وزيادة الانتباه بسبب نحافة جسمه، على أنه لا تنكر فائدة تعريض الأطفال للهواء والشمس، ولكن على قدر ما تتحمل أجسامهم لأن الأطفال ليسوا سواء بالقوة والصبر على احتمال التأثيرات الطبيعية، ولا يمكن أن تتخذ عيشة الأولاد في الأرياف قياسا تجرى عليه تربية أولاد المدن لأن ذلك يختلف باختلاف العادة والمكان، وفوق ذلك فإن

كثيرين يموتون في الأرياف وفي المدن التي يتبع أهلها نظام التربية الريفية بسبب تعرضهم للبرد وحر الشمس ولا يعيش منهم إلا قوي البنية من قبيل بقاء الأنسب، ولو راعوا القوانين الصحية في كلا المكانين لقلت الوفيات بين أطفالهم وزاد عدد سكان القطر زيادة عظيمة.

المحاضرة الثالثة

المطلب السادس : سكنى الطفل

لقد أجمعت آراء الأطباء على أن أول شرط من شروط الصحة والعافية: الهواء الجيد النقي فإنه أعظم معين للإنسان على الحياة وأقوى عضدٍ له على دفع العلل والأسقام لأنه ينتقي دمه ويقوي أعضاء جسمه ويساعده على هضم الطعام، وكذلك الشمس فإن نورها لازم لقتل جراثيم الأمراض والأحياء الصغيرة التي هي سبب الفساد وعلة كثير من الأمراض المعدية؛ ولذلك تختار لسكن الطفل الحجرة التي يدخلها الهواء ونور الشمس.

قال أحد مشاهير الأطباء «أعطني هواءً نقيا، فأستغني به عن العقاقير الطبية في معالجة الأجسام»، وقال آخر «أن الغرفة التي يدخلها الهواء ونور الشمس لا يدخلها طبيب»، وكلما كانت المساكن مرتفعة عن سطح الأرض كانت أصلح لحياة الأطفال لأن الهواء يزداد نقاوة وجفافا كلا ازداد ارتفاع، أما الطبقات المنخفضة منه فهي غير صالحة للتنفس لأنها مثقلة بالرطوبة ومشحونة في الغالب بأنواع المكروبات المرضية والعناصر المضرة التي ترسب لثقلها فلا تستطيع التحليق كثيرة في الهواء لأنه أخف منها وزناً.

وينبغي تعهد غرفة الطفل بالنظافة وفتح النوافذ من وقت إلى آخر لإدخال الهواء النقي إليها، والأفضل تقليل الرياش فيها والاقتصار على

البسيط منه، واللازم لراحة الولد وسلامته فإن كثرة الأثاث والتأنق مضاعفة الأنسجة التي تغطى بها الأسرة للزينة تمنع تخلل الهواء ولا بأس بوضع الستائر على النوافذ لكن لا ينبغي أن تكون مضاعفة ولا كثيرة، لئلا تكون مجمعا للغبار ومستقرة للجراثيم المنتشرة فيه فإننا لو نظرنا بمجهر إلى تلك الكرانيش التي تزين بها الأسرة وستائر النوافذ وغيرها من الأثاث الذي يهمل تنظيفه كل يوم نرى ألوفاً وألوفاً من الحيوانات المرضية التي لا تراها العين المجردة لصغر حجمها رائعة تنعم في تلك المهاد ومن حولها حواجز حصينة من الأثناء والطيات تصونها وتساعدها على التوالد والنمو حتى إذا بلغت أشدها طارت وانسلت مع الهواء إلى جسم الطفل ففتكت به بلا شفقة ولا رحمة؛ فالأفضل أن يكون الأثاث قليلا لأنه كلما قلت الأمتعة كانت الغرفة أدنى إلى الشروط الصحية.

أما أرض الغرفة فتدهن بالورنيش إذا كانت من الخشب وإلا فتغطى بالمشمع ويمسح بالماء في كل يوم فإن ذلك أفضل من الكنس الذي يثير الغبار ويلصقه بالرياش ولا بأس بوضع السجاد فوقه بشرط أن يخرج خارجا وينفض جيداً، والأوفق أن يمسح بمحاول مضاد للفساد من وقت إلى آخر فإن ذلك مفيد للطفل، ولاسيما متى بدأ بالحبو فإن الغبار والأقذار "تطاير منها عند ملامسته إياها فتفسد الهواء الذي يتنفسه فضلا عما يلصق منها بيديه اللتين كثيرا ما يضعهما في فقه فتنتقل المكروبات إلى جسمه بسرعة عجيبة. ويجب الاحتراس من إدخال مصابيح البترول إلى حجرات النوم فإن دخانها يفسد الهواء لما فيه من العناصر القاتلة،

وأفضل منها إنارة الشمع على أن يكون محفوظة بقالب كروي من الزجاج اتقاء من الحريق.

منام الطفل

يستعمل للطفل في الأشهر الأولى سرير هزاز يغطى بكلة (ناموسية) من الشاش أو «التول»، وهذا أفضل لاتساع خلاياه وسهولة نفوذ الهواء منه ولا يجوز أن يغطى السرير بملاءة أو ما شاكلها من الأغطية الصفيقة بحجة أنها تحفظ الطفل دافئا فإنها تحجب عنه الهواء وتسبب له الاختناق.

ومن أقبح العادات وأشدها خطرة أن ينام الطفل إلى جانب أمه أو مرضعة في فراش واحد فإن اجتماع أنفاسهما يفسد الهواء ويؤثر على صحة الطفل النحافة بنيته فضلا عن أن قربه منها قد يكون باعثا على إرضاعه لبنا كلما بكى، وفي ذلك ما فيه من الضرر له وإصابة معدته بعسر الهضم وعدا ذلك فقد يحدث أن تستغرق والدته في النوم فتقلب عليه وتقتله أو تجذب الغطاء فوق وجهه حتى تمنع عنه الهواء فيموت اختناقا، ويجب أن يكون فراش الطفل لينا ومغطى بملاءة من الكتان أو القطن تنطوي على مرتين أو أكثر ويفصل بينها وبين الفراش بقطعة من المشمع تحفظه من البلل وتغير الملاءة حالما تبتل، ولا بأس بلف قدمي الطفل بقطعة من الصوف الناعم في فصل الشتاء.. أما إذا بلغ الطفل سن الحداثة أو إذا جاوز سن الصغر فينبغي في فراشه أن يكون أميل إلى الصلابة منه إلى الحشاشة وأفضل ما يتخذ منه الصوف النقي أو القطن ويجتنب استعمال الريش أو الزغب لما فيهما من القبول لاختزان

الحرارة، كما ينبغي أن يجتنب الاستكثار من الأثر المتراكمة الشديدة الضبط الحرارة لأن كل إفراز من السهم يكون سبباً لضعفه، وكذلك الوسائد فإن استعمال القطن فيها أفضل من الريش، ولاسيما وسائد الأطفال لما في الريش من الحرارة المؤذية للرأس.

أما مواعيد نوم الأطفال فمن الواجب أن ترتب ترتيباً يشبه ترتيب مواعيد إرضاعه، وإذا كان الطفل كثير الأرق فلا يجوز أن يسقى مخدراً (كأبي النوم) وأشباهه فإنه يسقم الطفل وقد يقتله إذا أعطي بجرعات كبيرة ولا بد لأرق الولد من أسباب، وهي إما إن تكون ثيابه مبتلة أو حزامه مشدودا أو يوجد حشرات في سريره كالبق أو البراغيث فتحرمه الراحة بلذعاتها أو تكون معدته مثقلة بالغذاء فعلى الأم حينئذ أن تتدارك جميع ذلك بأن تتعهد السرير بالنظافة والتنقيب عما يقلق راحة طفلها ويسبب أرقه وتغير ملابسه في كل مساء وتواظب على مواعيد نومه وغذائه فإذا لم تنجح معه كل هذه الوسائل فيكون مريضاً يستوجب عناية الطبيب.

أما ما تفعله الحاضنات في مثل هذه الأحوال من تسكيت الطفل تارة بالهمز وطور بالهدهدة وحينا بحمله على أذرعتهن والمشي في الغرفة أو مناغاته فهذا كله لا يأتي بفائدة إلا إذا أريد به مداعبة الطفل أو ملاعبته، وينبغي أن ينوم الطفل في الأشهر الأولى على ظهره ويميل قليلا على أحد جنبيه تارة إلى اليمين وطوراً إلى الشمال، وبذلك يبقى الرأس على استدارته الطبيعية وتظل الأعضاء على استقامتها، وبعد ذلك ترك الحرية التامة للطفل ليتقلب في نومه على جنبه تارة أو بطنه أو ظهره

أخرى لما في هذا التنقل من الفائدة للولد والراحة التامة لأعضاء جسمه.

والطفل الصغير ينام في حالة الصحة نحو ١٨ أو ١٩ ساعة في اليوم أي أنه لا يستيقظ إلا وقت الرضاع والاستحمام، وكلما تقدم في السن تقل ساعات نومه في النهار حتى يستغني عنهما شيئا فشيئا وهو في السنة الثالثة. ويقتصر حينئذ على النوم ليلا ولما يبلغ السنة الرابعة والخامسة ينام في الساعة الثامنة ليلا، وفي السنة العاشرة إلى الثانية عشرة ينام في الساعة التاسعة.

ويجب الحذر من وقوع أشعة النور على وجه الولد في حال نومه فإن ذلك يسبب له أرقاً وكذلك لا يجوز أن يقبل أو يمس عضوا من أعضاء جسمه في حالة الرقاد إلا عند الاضطرار لأن المفاجأة باللمس قد تؤثر على شعوره تأثير مضراً، أما إذا أصيب الولد بانحراف في صحته فعلى الأم أن تسهر عليه وتمرضه بنفسها ولا تترك أمر العناية به للخدم بل تغير ملابسه بيدها وتحرص على راحته وإبعاد كل ما يكدره أو يضايقه من المناظر والأصوات وتجرعه الدواء بنفسها محتفظة بزجاجة العلاج ووضعها في مكان لا تصل إليه أيدي الصغار أو الخدم فقد تعددت حوادث الموت بسبب الإبدال في العلاجات وتجريعها للأطفال خطأ.

ومما ينبغي التنبه له أن لا يكون في غرفة المنام شيء من الأزهار أو الروائح العطرية لما لها من التأثير في الجهاز العصبي وما ينبعث من الأزهار من الحوامض الكربونية التي تضر بالنائم ضرراً بليغاً. وما قيل في غرفة النوم ينطبق أيضاً على غرفة النهار من حيث المبالغة في نظافتها

والإقلال من الرياش فيها على أنه يستحسن أن يوضع في هذه بعض النباتات والأزهار وأدوات اللعب وغير ذلك من الرسوم والصور التي تبهج نظر الولد، وتستلفت بصره للسؤال عنها واستيضاح أشكالها

المطلب السابع : غذاء الولد

الغذاء لازم للحياة لزوم الماء والهواء لأنه يكون الأنسجة التي يتألف منها الجسم ويقوم بتحديد ما يفنى من دقائقها بسبب عملها الحيوي الدائم، وهو ينتقل بعد هضمه إلى الدم ويسير معه في الجسد فيوزع على الأنسجة ما تحتاج إليه من الغذاء الذي يدخل في تركيبها ليخلف عليها ما يندثر فيها من الدقائق فيجب والحالة هذه أن يراعى في كمية الغذاء وكيفيته شروط الصحة واحتياجات الجسم. ومن المعلوم أن الولد على صغر جثته أحوج من الكبار إلى الغذاء الوافي لإنماء بدنه فوق ما يتطلبه من التعويض عما يفنى من دقائقه، ويشترط في الطعام أن يكون سهل الهضم لأن الفائدة ليست بكثرة ما يزدرده الإنسان من المواد الغذائية، فإذا كان الطعام عسر الهضم ذهب أكثره جزافا، ولم يتحول إلى غذاء فعال سوى قسط قليل منه يكاد لا يكفي لحفظ كيان الأنسجة ونموها.

ترتيب مواعيد الطعام

ومن اللازم أيضاً ترتيب مواعيد الأكل للولد كترتيب مواعيد الرضاعة للطفل، وذلك بأن يعين له ثلاث وجبات في النهار، ولا بأس من أن يتخلل هذه الوجبات الثلاث فنجان من اللبن أو ثمرة من الفاكهة تمكن الولد من انتظار وقت الطعام، ومن دواعي الأسف أن أكثر الأمهات الشرقيات لا

يبالين بهذا الترتيب بل يطعمن الأولاد في أي وقت اتفق بحيث لا يرون إلا وكسر الخبز في أيديهم وأنواع الحلوى في أفواههم، وهذا فضلا عن أنه يعسر الهضم فهو يذهب بشهية الطفل بحيث لا يشعر بقابلية لتناول الطعام في وقته المعين فيضعف جسمه من قلة ما يلحقه من الغذاء وتضعف معدته من توالي الطعام عليها بلا انتظام فضلا عن أن هذه المعيشة تفسد حس الولد وتضعفه في كثير من الأحوال.

كمية الطعام

تختلف كمية الطعام التي يحتاج إليها الولد باختلاف سنه ومقدار قابليته، والأولى بالأم أن تستدل على شبع الولد من كفه عن الأكل من تلقاء نفسه فإنه أصدق دليل على نيله حاجته منه. أما ما جرت عليه عادة بعض الأمهات من كف الأولاد عن الطعام مع ما يرون من طلبهم المزيد من خشية أن يبلغوا حد البشم أن أطلق لهم العنان فهذا زعم فاسد ووهم باطل إذ ليس من دليل يدلهن على أنهم نالوا حاجتهم منه إلا إذا تيقن بحكمتهن أن ثمة نهما حينئذ يجب أن يحذرن الأولاد من سوء عواقبه ويمنعنهم عن التمادي بالنصح والملاطفة لا بالعنف والفظاظة فإن الإقلال من الطعام مفسد كالإكثار منه، وقد يكون الإقلال في بعض الأحوال أشد ضررا لأنه يحول دون نمو الأولاد ويبليهم بآفات متعددة، وعدا ذلك فإن أكثر ما يكون النهم ثمرة الحرمان، وذلك بمقتضى الناموس الوطني المعروف برد الفعل، وعلى ذلك قيل أحب شيء إلى الإنسان ما منع.

ويلاحظ في الأولاد ميل خاص لتناول الأطعمة الحلوة وفي ذلك دليل على أن طبيعتهم صادقة الدلالة على ما يلائمهم فإن الحلاوة من أفضل الأكل التي تولد الحرارة في الجسم فتخلف عليه ما يتلف من حرارته بالتشعع، ولذلك صارت طبيعتهم تتطلبها وتدفعهم إلى حبها واستمرارها فليس من المعدل إذن أن يحرموا منها فإنها مفيدة لصحتهم لازمة لنموهم.

وكذلك الفواكه فإنهم يميلون إليها وهي مفيدة لهم بدون شك ومغذية لأجسامهم وإنما يجب أن تكون ناضجة وإذا طبخت مع السكر فإنها تكون أوفق للأولاد وأسهل في الهضم، ومن الأولاد من يكره بعض الأكل لسبب أو لغير سبب وقد يتمادى في ذلك إذا شعر من الأم تساهلا فلا يبقى ثمة مطمع في ترضيته أو سبيل لإقناعه بوجوب العدول عن هذه العادة السيئة فينتج عن ذلك تعب للأم وتنغيص في حياتها، ولاسيما من كثرة عدد أولادها واختلاف أميالهم في الأكل بحيث أن ما يستطيبه هذا يعرض عنه الآخر، وما تستمرئه هذه تكرهه الأخرى فتزداد بليتها وتختم على الأسرة بخاتم النكد والشقاء.

وينشأ هذا الكره في الغالب عن وهن في الأولاد وفي الكبار أيضا بدليل أن الولد إذا دخل المدرسة وجلس مع رفاقه إلى مائدة الطعام لا يلبث أن يأكل كما يأكلون وكذلك الرجل إذا قضت عليه الأحوال بالتغرب تذللت أمياله، وتعود أكل ما لم يكن يألفه قبلا، فعلى الأم في مثل هذه الأحوال أن تجعل حدا لهذا الوهم في ولدها وتوقف مجراه في

الصغر قبل أن يستفحل أمره في الكبر فتقنعه بوجوب تذوق الطعام شيئا فشيئا حتى يألفه فلا يأنف منه وفي الوقت نفسه تبين له أن امتناع عن الأكل ضرب من الوهم مبعثه ضعف الإرادة وأنه من العيب والعجز أن يكون ضعيف العقل إلى حد أن تملكه الأوهام.

وإني أعرف كثيرات من الأمهات اللواتي نحون هذا النحو في تربية أولادهن فاستقامت أميالهم وأصبحوا يأنفون من أن يظن فيهم شذوذ في الأذواق ومن الواجب على الأمهات اجتناب التنوع في المأكل غير أنه يلزم تنويعها في كل وجبة لتكون أمرا في ذوقهم يؤدي إلى تهييج قابليتهم.

ويستحسن ملاطفة الأولاد على المائدة ومنحهم حرية تامة في تبادل الأحاديث المفرحة لأن ذلك يزيد في شهيتهم ويساعدهم على سهولة الهضم ومن الأمور المهمة التي يجدر بالأمهات تعويد أولادهن عليها في الصغر مضغ الطعام جيدا قبل ابتلاعه، وإلا ثقل حمله على المعدة ولم يعد بالسهل استئصال تلك العادة منه في الكبر فيعيش حياته بطولها سقيم الجسم سيء الهضم

حدّث أحد الأطباء عن نفسه قال دعيت لمعالجة رجال مصاب بعسر الهضم فلبثت مدة طويلة أعالجه حتى أعياني أمره ولم أوفق إلى دواء يشفيه. واتفق أنني عدته يوما وكان يأكل جلست معه هنيهة ثم ما عتمت أن هتفت قائلا: إني وجدت دواء موافقا يشفي معدتك بغير شك وهو أن يكون مضغك للطعام أضعاف ما تفعله الآن فلما سمع العليل وولي عدل عن ازدراد الأكل كما كان يفعل قبلا، وبذلك تحسنت حاله وزال سقيم معدته.

ومما يجب تحذير الأطفال منه أيضا اتهام الطعام بسرعة أو أكله ساخنا جدا لأن ذلك مضر بهم، وكذلك قضم الأشياء اليابسة فإنه يؤذي أسنانهم، وبالجملة فإن من الواجب تعليم الأولاد آداب المائدة حتى تصير طبيعية فيهم لا يتكلفونها تكلفا في الكبر ولا يقعون في الخطأ بين الغرباء.

هذا ما يتعلق بالأكل أما الشرب فأسوغه للأولاد: الماء القراح الزلال يسقونه كلما طلبوا الشرب اللهم إلا إذا كان عطشهم بعد النهوض عن المائدة، وقبل أن يتم الهضم أو على أثر التعب المفرط لأنه يكون عطشا كاذبا وإذا صبروا عليه هنيهة زال، وانكسرت حدة عطشهم.

المطلب الثامن : في الرياضة

الرياضة من أشد الأشياء ضرورة لنمو الولد وحفظ صحته وتقوية عضلاته فإنها تسرع الحركة الدموية وتساعد الأعضاء على استجلاب المواد اللازمة لحياتها بما تحدثه من سرعة التنفس واستنشاق الهواء بكميات وافرة فضلا عن أنها تسرع الهضم وتزيد القابلية، ولا يخفى أن الحركة تتعقد لكثير من الغذاء فيسرع الهضم في تمثيل دوره حتى يعوض الجسم تلك الخسارة.

ولا تقتصر فائدة الرياضة على صحة الجسم فقط بل تتناول الدماغ فتنشطه وتبعث بالسرور إلى النفس فتضئ أشعتهُ أعماقها وتنشر شذاه في خلاياها فيستخفها الطرب وتستطيرها الآمال، وبعكس ذلك تكون الحال إذا لم ينل الجسد نصيبه من الرياضة فإن الدورة الدموية تضعف وتنحط قوة الأعصاب والتغذية وتهبط العضلات ويقل بروزها وتصفر البشرة وإذا

زيد في الخمول والسكون ضعف عمل القلب والدماغ وانحطت قوة الأجهزة شيئا فشيئا ومن ثم يقل امتصاص القناة الهضمية للأغذية فيعقب ذلك استعداد السرعة للتهيج والتأثر وانحراف في ضروب الحس والمشاعر فتحدث الأعراض العصبية التي أكثر ما تصيب نساءنا وخصوصا الطبقة العالية منهن حيث تكثر لديهن الخدم وتتوفر أسباب الراحة والرفاهية فيترفعن عن الأعمال ويقضين الأوقات جالسات في منازلهن على بسط الكسل وإذا خرجن ففي مركبات وسيارات حيث يجلسن بصدور خافقة من أثقال الملابس وضغط المشدات، وبذلك تبقى أعضاء أجسامهن ساكنة هادئة فتبطئ حركة التغذية ويضعف احتراق الأطعمة في الجسم فيتلبد ما يزيد عن حاجته طبقات شحم بعضها فوق بعض ومتى بلغ الإنسان حد الإفراط من السمن نشأ عنده ضعف في القوى الدماغية وقلة نشاط في الأعمال وانحطاط في الحافظة وميل إلى الإفراط في النوم هذا فضلا عما يلحق بظاهر الجسم من تشويه الحلقة بفقد تناسب الأعضاء وزوال جمال التركيب والصعوبة في المشي ومن الغريب مع ذلك أن نرى أكثر السيدات في الشرق يرغبن في السمن ولا يدخرن وسعاً في سبيل الاستزادة منه مع ما فيه من الضرر للصحة والمضادة للراحة والذوق.

وقد أدركت الأم الغربية فائدة الرياضة الصحية فعمدوا إليها وتفننوا في أنواعها وخصصوا لها من أوقاتهم ما جعلها في عداد الواجبات الضرورية وأوسعوا في الإكثار من ضروبها ترغيباً للناس ولاسيما طلبة

المدارس فعينوا الجوائز للبارعين تنشيطاً لهم وتشجيعا لسواهم.

والرياضة على أنواع كثيرة وكلها مفيد في تقوية الأجسام ومساعدة الأعضاء على القيام بوظائفها، وأقرب دليل على صحة هذا القول ما نراه في الفعالة والمزارعين والصناع وغيرهم من أصحاب المهن والصناعات التي تتطلب الأعمال الجسدية، فإنهم على قلة غذائهم وعدم ترتيب معيشتهم أشداء الأجسام أقوياء البنية لا تؤثر فيهم تقلبات الجو تأثيرها في غيره من المرفهين..

على أن من أنواع الرياضة ما لا يوافق جميع الأجسام، ومنها ما لا يتوفر لجميع الناس، على أن المشي أفضلها وهو ما يستطيعه الجميع ولاسيما السيدات، ويشترط في المشي أن يكون في الهواء الطلق النقي وأن لا يكون بعد الأكل مباشرة أو في حالة فراغ المعدة تماماً.

أما الأولاد فإن نمو أجسامهم يتطلب الركض واللعب وما شاكل ذلك من الحركات العضلية العنيفة، ولاسيما متى دخلوا المدرسة وانكبوا على الدروس بضع ساعات من النهار لا يمكنهم فيها مبارحة مكانهم ما لم يسمح لهم بالرياضة واللعب فمن الواجب أن يدفعوا إليه بالملاطفة واللين بعد إقناعهم عقلياً بوجوب الرياضة لإنماء الجسم والعقل معاً والتعويض بها عما فقدوه بمزاولة الدرس والمطالعة وأن يوضع بين أيديهم من وسائل الرياضة ما يستميلهم إليه وأن لا يكرهوا على نوع من اللعب لا يحبونه أو لا تقوى أجسامهم النحيفة على احتماله لأن أنفع اللعب ما يأتونه من تلقاء أنفسهم وينتهجون بمزاولته لا اللعب الذي يقترح عليهم

فإن هذا يكون حينئذ بمثابة باقي الواجبات التي يرغمون على القيام بها فلا يجدون فيه سرورا؛ فتضيع الفائدة منه..

ومن الواجب أن يفهم الولد أن فترات اللعب هذه هي بمنزلة مكافأة له على طاعته لوالديه واجتهاده في دروسه، وكلما كانت تلك المكافأة أحب إليه كان على اكتسابها أحرص. ومن الظلم أن يزجر الأولاد عن الجلبة والضوضاء والقهقهة أثناء اللعب لأن الصراخ يقوي الحنجرة، والضحك ينعش القلب، وهنا ملاحظة يجدر بالأمهات التنبه إليها وهي وجوب منع الأولاد من اللعب في الأزقة والحارات؛ فإنه على قدر ما يكون من فائدة الرياضة لهم في الخلاء يكون الضرر من لعبهم في الطرق الميدانية المنازل حيث يفسد الهواء وتكثر الرطوبة والأوساخ فضلا عما يثيره الهواء من الغبار المتشبع بجراثيم الأمراض وما يتعرض إليه الأولاد من أخطار العربات ومصادمة الحيوانات، وما يتطرق إلى مسامعهم من ألفاظ الطبقة المنحطة من السابلة.

ولما كان أكثر البيوت في هذا القطر محرومة من الحدائق كان من الواجب أن يخصص للعب الأولاد غرفة واسعة النوافذ طلقة الهواء قليلة الأثاث فيمرحون فيها مدة الصغر ومتى دخلوا المدرسة وجدوا فيها من الاستعداد ما يكفي لترويض أبدانهم وفي الحالين لا تعذر الأم عن تركها أولادها في الطرق بل من الواجب أن تحرص عليهم داخل المنزل، وبذلك يسهل عليها كبح جماح إرادتهم فضلاً عما تكسبهم من الآداب الراقية وجودها معهم ومزاولتها نصحهم وإرشادهم في جميع أحوالهم،

فإذا أغضت الطرف عنهم ولو مرة واحدة أو تساهلت معهم تعسر عليها بعد ذلك رده عن الشوارع فتنحط آدابهم ويتعرضون للإخطار التي سبق ذكرها.

على أنه كيف كان الحال، فلا بد من إرسال الأولاد إلى المتنزهات البعيدة عن ضوضاء المدن وقيود الرسميات، وذلك في كل يوم أو في كل أسبوع مرتين على الأقل وهناك تطلق لهم الحرية في اللعب ورياضة البدن فتتسع صدورهم المرنة وتقوى رئاتهم الصغيرة باستنشاق الهواء النقي، ومن الضروري أن تكون ملابسهم عندئذ بسيطة، لا واسعة فيتعثرون بأذيالها ولا ضيقة فتعيقهم عن الحركة، وأن لا تكون غالية الثمن أو كثيرة الزخرف حتى إذا دفعت بالولد طبيعته إلى المرح والقفز وتكويم التراب والتمرغ على الأعشاب فتزجره أمه أو خادمته عن ذلك خوفا من أن تتسخ ثيابه وبذلك تصده عن رياضة ضرورية لنموه استبقاءً على ثيابه.

وإني أنصح للأمهات بمرافقة أولادهن إلى المتنزهات وعدم تركهم لعناية الخدم الذين يغلب عليهم الجهل والطيش ويكثر عددهم في بلادنا الشرقية، حيث نرى الحواضن والخادمات الوطنيات لا يدركن شيئاً من واجب العناية بالأطفال، ويكفينا للدلالة على صحة هذا القول أن نقصد إلى المتنزهات والحدائق العمومية فنشاهد الخادمات مجتمعات يتبادلن الأحاديث والقصص، والأطفال متروكين جانبا: هذا معرض لحرارة الشمس المحرقة، وذاك جالس على الحشيش الندي، وآخر يقبض التراب ويضعه في فمه أو ينشره على رأسه وعينيه، وإذا اتفق للخادمة أن

مالت بوجهها نحو الولد ورأته على تلك الحال بادرته بالصياح، وانهالت عليه بالشتائم، وقد تتمادى بالقبح فتضربه أو تقرصه قاصدة بذلك إلقاء الرعب في قلبه.

وما يقال في الخادمات الوطنيات يقال أيضا في الخادمات الأوربيات فإن هؤلاء لا يمتزن عن الوطنيات إلا ببرقشة الظواهر لأن أكثرهن – إن لم نقل كلهن – من الطبقات السافلة، ومعلوم أن الطبقات السافلة في الشعوب الأوربية ما بعدها انحطاط في الآداب والتربية، وفوق ذلك فإنهن على حقارة أصلهن لا يخلين من تلك الصفات العالية في أقوامهن ألا وهي احتقار الشرقيين والازدراء بهم فينتج عن ذلك أن الأولاد صبيانا وبنات يتشربون هذه المبادئ الساقطة وينشئون على احترام كل شيء غربي حتى السيئات واحتقار كل شيء شرقي حتى الحسنات.

وعلى ذلك أنصح لكل والدة منا بالسهر على أولادها في البيوت ومرافقتهم في المتنزهات حرصا عليهم من الأخطار والآفات، ولا بأس بما تحمله الأم في هذا السبيل من التعب والامتناع في بعض الأحيان عن الزيارات والمقابلات فإن يكافئن على ذلك ما يجدن في أولادهم من حسن الآداب وصية الأجسام وما يحرزن بواسطتهم من المجد والسعادة والفخار في مستقبل الأيام.

المحاضرة الرابعة

المطلب التاسع : في التربية الأدبية

لقد اختلفت آراء العلماء في الإنسان من حيث صفاته الطبيعية؛ فذهب فريق منهم إلى أن أصول الآداب مودعة في النفس، وقال غيره "النفس أمارة بالسوء"، وقال الشاعر العربي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـــة فلعلـــه لا يظلـــم

وذهب فريق إلى أن الولد يولد إما خيراً أو شريراً، أي لا تأثير للتربية عليه وعلى ذلك قالوا الطبع يغلب التطبع. وزعم غيره أن الطفل يولد على استعداد إما للخير أو للشر وأنه يميل إلى الوجه الذي يريده المربي، وعلى ذلك لا يكون للإنسان شيء من الصفات الغريزية بل كل ما فيه من الأخلاق مكتسب وبعبارة أخرى أنه صنيعة التربية.

وبديهي أن هذا الاختلاف في آراء الباحثين قد نشأ عن تباين الصفات في البشر فهي بينما تسمو في بعضهم إلى ذروة الفضائل والكمالات حتى ليداني بها الإنسان مقام الملائكة إذا بها تسقط بغيرهم إلى حضيض المفاسد والنقائص بحيث يصبح الإنسان شرا من الوحوش الضارية والأفاعي السامة، وبينما هي تصلح أحيانا بفعل التربية حتى تبلغ حداً ما وراءه زيادة في الفضل والأدب إذا بها تعصى المربي وتنشأ على عكس ما يريده لها من الخير والصلاح حالة كونها قد تستقيم بالفطرة

أحيانا فتجعل أصحابها في عداد أهل الفضل والنبل وإن لم ينالوا أقل نصيب من التربية والتعليم..

فما هو سبب الاختلاف العظيم في طبيعة هذا المخلوق العجيب، وهل يختلف حظه في الوجود فيخلق إما خيرا أو شريرا، وهو بعد طفل لم يأت حسنة يستحق لأجلها المكافأة، ولم يقترف إثما يستوجب لأجله العقاب وهل يعقل أن تكون صفاته تارة مرنة تتكيف بالشكل الذي يريده المربي وتارة صلبة لا يؤثر بها شيء من تعاليمه وإرشاداته حالة كونه واحدا في التركيب. كلا، وإنما هناك سبب مستقر في النفس لازم لتنازع البقاء ألا وهو حب الذات؛ فحب الذات ناموس طبيعي تخضع لأحكامه المخلوقات كافة في حفظ كيانها، وعلى ذلك فكل عمل يأتيه الناس على اختلاف مراتبهم وأعماره الطرق إنما يعود إلى ما يرون فيه مصلحة لهم وفائدة في حفظ ذواتهم.

غير أن الطرق التي يتخذونها لبلوغ غايتهم هي التي تختلف باختلاف مبادئهم وأميالهم، فالعالم الفاضل الذي ينفق سني حياته في سبيل ترقية بني جنسه وإعلاء شأنهم، والحسود الجاهل الذي يعمل على الحط من منزلة ذوي العلم والفضل، والطبيب الذي يعمل الخير في دفع الأسقام ومعالجة الأمراض، والأثيم الذي يقترف الجرائم بسرقة الأموال وقتل النفوس.. جميع هؤلاء يعملون لخدمة مصلحتهم مدفوعين بعامل حب الذات وإنما تختلف الطرق، والغايات التي يتوخاها كل منهم لخدمة مصلحته فالسارق لا يسرق لمجرد رغبته في أذية الآخرين أو لأنه خلق

شريرا بل هو يسرق للانتفاع بما يحوزه من السرقة حفظا لكيانه، وإنما يسلك تلك الخطة التي لا يسلكها الفاضل لأنه لم يهذب نظيره ولا توفرت له وسائط التربية الصحيحة كما توفرت لذلك.

وعليه فتكون التربية هي الواسطة الوحيدة الفعالة في تدميث أخلاق الولد وتقويم سيرته والميل به إلى الخير والصلاح، ولكن ذلك لا يدل دلالة قاطعة على أن في التربية العلاج الفعال الذي لا يكذب في حال من الأحوال أو أن التربية توجد في الولد ما هو غير موجود فيه بالفطرة فلعمري أن بعض الحلال المستهجنة قد تكون موروثة من الآباء بل من الحدود فيتعذر إصلاحها حتى لا أقول يستحيل بعضها وان لم يكن موروثا فقد يحول دون إصلاحه حائل طبيعي من بنية الولد أو من مزاجه، وكثيرا ما نشاهد أولاداً تتساوى شروط تربيتهم وتتفاوت مع ذلك أخلاقهم لتلك العلة كما أننا نرى كثيرين قد خصوا بمواهب سامية دون آخرين حتى أنهم على قلة وسائط التربية أحيانا يفوقون سواهم ممن ربي تربية حسنة، على أنه مهما تأصلت المساوي الموروثة في الإنسان فإنها تضعف يشمل التربية القوية شيئا فشيئا حتى تتلاشى أخيرا إن لم يكن في عهد الفرد الواحد فعلي توالي الأحقاب والأزمان.

المطلب العاشر: في تقويم الأخلاق

تقدم لي القول أن تربية الصغار قائمة على ركنين مهمين أحدهما السلطان بالإضافة إلى المربي وثانيهما الطاعة بالإضافة إلى الولد إلا أن السلطان ينبغي أن يكون مقترنا بالرفق في حزم، أي ميزها عن العنف في

غير موضعه وعن التساهل والتسامح في غير موضعهما كما أن الطاعة ينبغي أن تكون ناشئة عن ثقة الولد بمربيه وتيقنه بأنه يحبه وبأنه لا يريد بما يأمره به سوى نجاحه وفائدته لا مجرد التحكم والاستبداد.

ولما كانت التربية في الصغر تتعلق بالأم – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – فعليها أن تجتهد بحكمتها في امتلاك قياد ولدها بالتودد والملاطفة فإذا طلب شيئا لا يوافق إعطاءه إياه تمنعه عنه منعا باتا ولو مهما بكى وألح في طلبه فيفهم بعد ذلك أنه لا فائدة من البكاء، ولا مندوحة من الطاعة فيتعود الامتثال لإرادة والدته، وإذا حاول الولد أن يمس شيئا نهته أمه عنه قبلا فلا يوافق أن تخبئه عنه خوفا من بكائه لأنها بذلك تجعله يأبى الامتناع عن مسك أي شيء ما لم يبعد عنه، والأفضل في مثل هذه الحال أن تدع الشيء في مكانه وتوجب على ابنها عدم الدنو منه مقنعة إياه بوجوب الطاعة والامتثال لإرادتها، ومتى استمرت الأم على هذه المعاملة أصبح ذهن الولد كالشمع طواعية في يدها وأمكنها أن تغرس فيه المبادئ الصحيحة والصفات الحسنة التي تتوخاها.

ولا يستنتج من ذلك أن تضغط على عقله وتقيد أفكاره إلى حد أن تنزع استقلاله وتقتل كل مميزاته لأنه بذلك يشب على ضعف في عقله وذل في نفسه وانقياد لرأي غيره بدون استعمال فكره، والأحرى أن تعوده الاعتماد على أفكاره في تفهم الأشياء بحيث تقوي فيه قوة التصور والاستنتاج. وكما تضطرها قيادة ولدها إلى أن تكون حاكمة متسلطة على إرادته كذلك توجب عليها أن تكون بمنزلة الصديقة له فتخص جانبا من

وقتها لمباسطته وتسليته تارة برواية القصص المفيدة التي يميل إليها والتي تكسبه أدبا، وطور تحثه على الأعمال التي توافق سنة وأمياله وحينا بتفهيمه أسرار الكائنات وغرائب أفعالها وكذلك سائر الأشياء التي تقع تحت بصره أو تستدعي انتباهه للسؤال عنها، وبذلك تمكن فيه حب الاستطلاع وتجعل فيه ميلا واستعدادا لفهم العلوم الطبيعية وتسهل لديه درسها بعدئذ في الكتب فضلا عن إنها بذلك تشر به محبتها وتجعله يستعذب معاشرتها ويستلذ أحاديثها فوق ما يناله من الثقة بها والاعتقاد بعظيم عنايتها وحنوها بعكس ما لو اقتصرت على تأييد سلطتها عليه بالقسوة والعنف والزجر والضرب فإنه ينفر منها ويطلب الابتعاد عنها ولا يصدق أن يتيسر له الفرار من وجهها والإسراع إلى خادماته وأصدقائه وتكون نتيجة ذلك تربيته على الخوف وسفالة الأخلاق؛ فالكراهية والبغض لوالديه والمكر والرياء والمخادعة والغدر إلى غير ذلك من الصفات التي كثيرا ما تؤدي بالأولاد إلى الفتك بوالديهم متى اشتد ساعدهم ووجدوا بابا للتخلص منهم لأن النفس لا تذل إلا إلى حين ولا تصبر على الضيم إلا ريثما تجد واسطة ومقدرة على دفعه

ورب معترضة تقول أننا نحن الشرقيات ليس أحن منا قلبا على الأولاد ولا أكثر منا حرصا على هنائهم وسرورهم.. أجل إننا كذلك، ولكن متى وكيف؟

متى اقترف الولد ذنباً ورام والده تأديبه تظهر الأم حينئذ حبها وحنوها بأن تضم الولد بين ذراعيها وتحول دون إتمام قصد أبيهِ، وكذلك

متى رأته يبكي لجرح طفيف أصابه وهو يلعب بسكين كانت قد نبهته مرارا عن لمسه أو متى رأته عائدا من الكتاب حانقا على معلمه لأنهُ عاقبهُ على سوءِ تصرفهِ وقلة اجتهاده فإنها لا تلبث في مثل هذه الأحوال أن تقبله وتلاطفه وتسترضيه إلى أن يذهب ما به من الغيظ والكدر. أفلا يدعى عملها هذا حبا؟ أجل إنه كذلك ولكن يا له من حرب البغض أفضل منه، فإنها كانت تحسن صنعا لو وبخته بصرامة وقسوة وجفته حينا لتؤكد له أنه قد أخطأ وأنه يستوجب أكثر مما ناله من العقاب. هذا هو الحب الحقيقي الذي يثمر ثمارا جيدة في الولد، أما الملاطفة التي تضعها الأم في غير موضعها من ابنها فإنها وإن كفكفت دموعه في الحال فإنها تقضي على آدابه في المستقبل فضلا عن أنها تبعث به على الاستخفاف بأمه والتمرد عليها..

ولكي تجمع الأم بين محبة ولدها واحترامه لها يجب أن تسلك أمامه مسلك الأدب والتعقل والصدق فإن رامت توبيخه على ذنب أتاه فبالتأني والتؤدة لا بالسخط والصياح والدعاء عليه؛ فإن ذلك يحط منزلتها في عينه، ومن الواجب أن تعدل في معاملة أولادها بحيث لا توجد مجالا بينهم للتحاسد والتباغض، وأن لا تحجب عنهم ما يحتاجون إليه فتعلمهم بذلك السرقة.

ويجدر بالأم أن تنبه في ولدها عاطفة الشفقة على المصابين والمعوزين وبذل المعونة لهم والسعي فيما يؤول إلى سد حاجتهم، مع الامتناع عن تعذيب الإنسان والحيوان والعفو عند المقدرة فإذا ما رامت

أن تعطي درهما لفقير فلتكلف ابنها أو بنتها أن ينوب عنها بهذا الواجب، وهكذا عليها أن تنمي فيه كل ميل صالح وتردعه عن كل أمر قبيح فتربي فيه عادة التلطف والإباء وكبر النفس واستقباح الخدعة والكذب والاستبداد وكل خلة ذميمة تحط بشأن الإنسان.

ويحسن بالأم أيضا أن تفرض على أولادها صبيان وبنات أن يقوموا بأشغال منزلية خفيفة كنقل آنية غير قابلة للكسر من غرفة إلى أخرى أو ترتيب بعض المفروشات إلى غير ذلك من الأعمال التي تلائم سنهم، فإن الولد ميال من طبعه لدوام الحركة فإذا لم يجد عملا مفيدا يعمله يعمد إلى الضار منه كالتخريب والتكسير لأن ذلك سهل عليه لا يستوجب معرفة وتعليم، أما إذا تمرن الأولاد على الأعمال المفيدة فإنهم يشعرون بسرور وارتياح لإتمامها ولاسيما إذا عينت الأم جوائز لأكثرهم إتقانا للأعمال فإنهم يقبلون بنشاط، وبذلك يشبون على حب العمل ويجتهدون في أن يكونوا مفيدين لأنفسهم ولغيرهم.

تروني قد قصرت أكثر بحثي في التربية على الأم دون الأب، وذلك ليس لأنه خال من المسؤولية في تهذيب أولاده بل بالعكس فإن منزلة الأب والأم واحدة من الحب للأولاد والاهتمام فيما يؤول خيره وفائدتهم ولكن واجبات الأب المعيشية تقضي عليه بعدم ملازمة الأولاد بعكس الأم فإنها تلازمهم دائما وباستطاعتها وحدها تربيتهم إذا كانت حكيمة، وفي هذه الحال لا يبقى للأب من واجب سوى ترك الحرية المطلقة لزوجته في تربيتهم واحترامها أمامهم لتكون كلمتها مسموعة

لديهم وإرادتها مطاعة منهم.. أما إذا كانت جاهلة بقوانين التربية فمن واجبات الأب أن يقوم مقامها في إرشادهم وتهذيبهم على قدر ما تسمح له أوقاته وتنبيه الأم إلى واجباتها من نحوه بلطف وفي غياب الأولاد.

على أنه مهما كان الوالدان عارفين بقوانين التربية فلا بد لهما من الاستعانة بالدين وتفهيم الولد أن فوق سلطتها سلطة أعلى وأسمى تنفذ إلى أعماق القلوب وتدرك من مكنوناتها ما يستطيع إخفاءه عن أبويه، وبذلك تتولد الفضائل وتنمو في نفسه ويصبح للتربية سلطة أقوى في تجنب الشرور والمعاصي وتقويم المبادئ المعوجة، ومتى اقترنت التربية الصحيحة بالتقوى تغلبت الفضيلة في الولد وأصبح قادرا على محاربة الأميال الشريرة ودفع سهام الحزن والتعصب واليأس عن فؤاده، فضلا عما يحرزه من تثقيف العقل وتنوير الذهن الذي يعلم بواسطته فائدة الأديان ووجوب احترامها؛ فيتخلص بذلك من قيود التعصب التي تهدده في حياته المستقبلة سواء في المدرسة أو في العالم.

المحاضرة الخامسة

المطلب الحادي عشر : في شوائب الأولاد وطريقة عقابهم عليها

إن شوائب البشر وعيوبهم كلها ترجع إلى أصلين كبيرين أحدهما حسي يضاف إلى البدن وهو الميل البهيمي، والآخر معنوي يضاف إلى الذهن وهو الأثرة فإذا غلب الأول في طبيعة الولد مال إلى الكسل والنهم والملاهي والتبذير وإذا غلب الثاني ظهر فيه الحسد والحقد والفظاظة والكذب والبخل، ولكن ما من خلة من هذه الخلال الذميمة إلا وبإزائها خصلة حميدة إذا اعتني بإنهائها وتربيتها في الصغر لاشت تلك أو عدلتها حتى تجعلها من المناقب الممدوحة، مثلا إذا كان من طبع المرء الإسراف فإن التربية القوية وما تنطوي عليه من علم الاقتصاد والتدبير قد تلاشي منه تلك الخلة أو تحولها إلى بسط اليد لتعضيد المشروعات العلمية والأدبية والأعمال الخيرية، وذلك بما تبثه فيه من الآداب الراقية وما تحببه إليه من الفضائل والصلاح وكذلك الحسد فإنه إذا لم يتلاش بفعل التربية فإنه يتحول بصاحبه إلى مباراة غيره في طلب المعالي ومسابقتهم إلى المراتب فيستفيد بذلك نجاحا وتقدما ويكون مثالا لغيره في بعد الهمة وخطارة النفس؛ فالأم الحكيمة هي أقدر الناس على تربية جراثيم السلاح في الولد، وذلك أنها كلما اطلعت على نقيصة فيه تبين له ضررها وتحمله بالرفق والملاطفة على الإقلاع عنها وملازمة الخصلة التي تضادها بقدر الاستطاعة.

أما وقد اتضحت أسباب الشوائب وطريقة إصلاحها فأقول أن أنجع طرق العقاب وأعدلها ما ينشأ طبعا عن الخطأ الذي ارتكب لأن الطبيعة نفسها هي التي تعين جنسه ومقداره وهي التي تفرضه على المخطئ لتعلمه بالخبرة أنه ما تعدى أحد نواميسها إلا عوقب؛ فالطفل الذي يكسر داحته (لعبته) يعاقب من طبعه بحرمانه منها، فإذا تجاوز ذلك إلى كسر لعبة أخته عمدا ليؤذيها أو لمحض التلهي؛ فعلى الأم أن تقتدي بالطبيعة في عقابه فتأخذ منه بعض أدوات لعبه أو شيئا آخر ذا قيمة عنده فتعطيه لأخته، وبذلك تعوض عليها ما أتلفه لها وتذيقه أيضا مرارة فقدان ما يعزه فيذكر أن عقوبته مسببة عن ذنبه وناشئة عنه لأنها مجانية له وهذا النوع من العقاب يدعى عقاباً طبيعياً وهو أفضل من الضرب وخلافه الذي لا يشبه جنس الجرم ولا يكون في الغالب مناسبا له بل يحمل الولد على التظلم لعدم إدراكه في أكثر الأحوال نسبة العقوبة إلى خطئه، أما لو اقتدت الأم بفعل الطبيعة في معاقبته فإنه يدرك تلك النسبة ويقر لنفسه بعدل العقوبة محاذرة من حاولها به ثانية، ولزيادة الإيضاح نقول للأم أنها إذا خلطت لابنتها ثوبا جديدا فدفعها الطيش إلى تمزيقه سريعا أو تلطيخه بالأقذار غير محترسة عليه فتوبخها على ذلك وتكلفها أن تنظفه أو ترفأه بنفسها إن كان ذلك ممكنا وإلا فتدعها تلبسه متسخة وممزقة ليهز بها أترابها وتعير هي نفسها منه فتعلم بعدئذ أن تحرص على ثيابها خوفاً من أن تتعرض لمثل تلك الإهانة ثانية، وذلك أفضل من أن تضر بها فتوجعها ثم أسرع لخياطة ثوب آخر لها. فإن مثل هذا القصاص ليس من جنس الخطيئة ولا هو ناشي بالطبع عنها؛ فهي قلما تدرك ما

بينه وبينها من العلاقة وإذا أدركت شيئا من ذلك فإنها تنساه سريعا ثم تعاود الذنب بخلاف ما لو كان القصاص طبيعية ناشئا عن الذنب فإنه يذكرها كلما همت بإعادة الخطأ فترتدع عنه حتى إذا خاطت لها ثوبا جديدا بعد ذلك وجدتها أكثر احتراساً عليه.

وكذلك لو أهدى الأب ساعة لولده أو سكينا لبري القلم أو دواة نبيلة فلم يحتفظ بها بل أضاعها أو كسرها فلا يسرع بأن يعوض غيرها بل بدأ يذوق مرارة فقدها مدة ليشعر بأن ذلك قصاص على قلة اعتنائه حتى إذا أعطاه غيرها بعد ذلك كان أكثر احتفاظ بها وإذا أضاعها أو كسرها ثانية فيجدد القصاص عينه من الطبيعة أيضا، وبذلك يبقى الوالدون بمعزل عن أن ينسبهم الأولاد إلى القسوة أو يضمرون لهم الحقد والحنق بل يلبثوا عندهم أصدقاء نصيحين يحذرونهم سوء العواقب لا أعداء بغيضين متحكمين يريدون لهم الأذى.

هذا فيما يصدر عن الولد من الهفوات الصغيرة والخطايا السيرة فإن تجاوز ذلك إلى حد الغلظة أو ارتكب ذنبا لا يمكن أن يفرض له عقاب طبيعي من جنسه فعلى الأم أن تغلظ له العقاب بحيث يعلم أن غلظته هي التي أوجبت له غلظة القصاص كما لو أخذ شيئا من أحد ولم يشكره عليه كما هو الواجب؛ فعلى الأم أن تنبهه إلى ذلك فإن أبى طاعتها فينبغي أن تلجئه ولو بالقهر إلى أن يقوم بواجب الشكر، وكذلك إذا أغلظ بالكلام لأحد أو رفع يده عليه فتضطره إلى الاستغفار ممن أساء إليه ثم تباعده مدة ليعلم أن فعلته هي التي أوجبت سخط أمه

وامتعاضها فإن ارتكب ذنبا أعظم من هذه الكذب مثلا فعلى الأم أن تعزره وتؤنبه وتحبسه في حجرته مدة ما. وإن ارتكب خطايا يخشى أن تفضي عواقبها إلى هلكته أو الإضرار به كما لو حاول القفز من شاهق أو لعب بجارحة أو تصدى لغير ذلك من الأفعال التي عقوبة الطبيعة عليها ذات خطر على حياته فتأمره بالكف عنها مظهرة له سوء العاقبة فان لم يرعو تعين عليها أن تكفه عنها بالقوة المجبرة.

ويحسن بالأم أن تشدد العقوبة على الكذب لأن الكذب شر العيوب وأصل المعاصي ومتى هان على الإنسان ارتكاب جريمة الكذب هان عليه ارتكاب جميع الموبقات لاعتقاده أن الكذب ينجيه منها، والكذب ليس من طبيعة الطفل ولا موجب له لديه بل هو عارض عليه من تأثير التربية فمتى أتى الولد ذنبا وأقر عنه أولا لدى السؤال فعاقبته أمه أو ضربته من أجل ذلك الذنب فلا ريب أنه يميل بعد ذلك إلى إنكار ما يجنيه من الذنوب هربا من العقاب، وهكذا يتعود الكذب لأنه يرى فيه منجاة له على حد قول الشاعر:

والصدق أن ألقاك تحت العطب لا خير فيه فاعتصم بالكذب

والأفضل أن تمتنع الأم عن قصاص الولد لدى اعترافه لها بخطيئته وتكتفي بتحذيره من إتيان ذلك الخطأ ثانية مبينة له سوء العاقبة، وبذلك تشجعه على الإقرار بالحقيقة دائما فيشب على الصدق والأمانة ويكون طيب القلب مستقيم السير في مستقبله فتسمو منزلته بين الناس وتعظم ثقتهم به فضلا عما يشعر هو به من راحة الفكر والضمير وما يتمكن بينه

وبينهم من روابط الاستقامة والود بحيث تعتبر الهيئة الجامعة بذلك أسرة واحدة متصلا بعضها ببعض بروابط المحبة والإخاء والفضية والشرف.

المطلب الثاني عشر: في إرهاف الذهن

إذا نظرنا إلى الطفل وهو بعد في مهده نجده يحدق النظر في كل غريب يدنو منه ويتناول كل ما تقع عليه يده فيحمله إلى فمه ويعض عليه، وما ذلك إلا رغبة منه في الاستطلاع والاستفهام وهكذا يشرع في إدراك المدركات وتفهمها بالاختبار والامتحان من تلقاء نفسه وعلى قدر استطاعته ثم متى ترعرع إلى أن يتدرج إلى السؤال والاستخبار عن كل ما تقع عليه عيناه فإذا قطف زهرة أو التقط حصاة أو رأى ساعة أسرع إلى والدته أو حاضنته راغبا في معرفة شيء من أمرها تارة بالتلميح وتارة بالتصريح بقوله ماذا ولماذا وكيف هذا إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا يكاد يفتر عن طرحها علينا ولا نكاد نحن نفتر عن زجره عنها اعتقاداً بصعوبة تفهيمه إياها وإذا جاوبناه عليها فكثيراً ما نجعل جوابنا قليل الفائدة أو من باب المزاح مع الطفل فالأجدر بالأم أن تهتم بإعانة الطبيعة على إنهاء ذهن الولد وتقوية اهتمام الزارع بالزرع فكما أن الزارع يتعهد زرعه ويقتلع ما ينبت في خلاله من شوك يخنقه وزوان يفسده، فكذلك يجب على الأم أن تحرص على تقوية ذهن الولد وإرهافه ليتهيأ شيئا فشيئا لما سيلقى إليه من المعارف والعلوم إلا أن ذلك يجب أن يكون رويداً رويداً بحسب ترتيب الطبيعة وتبعا لمجراها لا ابتسارا ولا قسرا لأن كل ما نبتسره أو ننميه قسراً نعرضه لفقدان كثير من مزاياه

الحسنة الطبيعية، ونكون فيه من يستنبت شجرة في أرض حارة الإقليم فإن شدة الحرارة قد تجعلها تمر سريعا ولكن ثمرها يكون في الغالب تفهاً لا يستلذ طعمه لأنه ينضج في وقت قصير لا يتمكن به من امتصاص الغذاء الكافي من الأرض كما لو استنبت في أرض معتدلة الحرارة طيبة الهواء.

وهذا الضرب من التعليم القسري هو عين ما نراه في بلادنا وفي غيرها من البلاد الأخرى أيضا فإنه لا يكاد الولد يبلغ الحول الرابع حتى يرسل إلى المدرسة وهناك يبدأ في تعليمه أسماء حروف الهجاء ثم القراءة في كتب لا يكاد يفهم أكثر معانيها فيتعب عقله وينتهي به الأمر إلى الفجر والتذمر من القراءة والعلوم بأسرها هذا فضلا عما يصاب به الولد أيضا من ضعف الجسم وتأخر الصحة وقلة النمو.

وعليه فلا ينبغي وضع الولد في المدرسة قبل أن يبلغ السنة السابعة على الأقل، وفي أثناء هذه المدة يعلم بدون كتاب فيشرح له بطرق سهلة المأخذ الأشياء التي تقع تحت حواسه أو تخطر بباله أو تستلفت نظره سواء كانت في البيت أو في الحديقة أو في الخلاء أو في البحر أو كانت من أعضاء جسمه أو ثيابه أو من أنواع الطير والحيوان أو من المعادن والنباتات وهلّم جرا فإن ما يتعلمه على هذا النمط يكون أحب إليه وأكثر رسوخا في ذهنه إذ يكون هو الذي سعى إليه وتنبه فكره له فيتعلمه بسرور وارتياح ولاسيما التي توصل إليه بطريقة مشوقة لا تزعج ذهنه.

وفضلاً عن ذلك فإن هذا النوع من التعليم إنما يكون بالمباشرة والملابسة والامتحان والاختبار بالنفس، وهذا ما يجعل العلم أكثر وضوحاً وأدى الثقة للولد مما لو تعلمه بالكتب فإننا لو وضعنا قليلا من الماء في طبق معرض للهواء ونور الشمس ثم بعد ساعة نبهنا الولد إليه لاستغرب من جفافه وحاول أن يفهم أين ذهب الماء فإذا بسطنا له حينئذ طريقة التبخر بفعل الشمس والهواء لأدرك الحقيقة وسلم بها حالا بعكس ما لو علمناه طريقة التبخر الطبيعي في الكتاب لأن ذاك تيقن بالخبرة الشخصية وهذا في أول الأمر تسليم بما يقوله الغير وشتان ما بينهما.

ثم إن التعليم بالكتب وما فيها من القواعد العويصة يجري على خلاف سير الطبيعة في نمو عقل الولد، فقد سبق لنا القول أن عقل الولد يكون في أول عمره ضعيفا جدا ثم ينمو ويتقوى بتدرج نشوئه وأما التعليم بالكتب فيبتدأ فيه بالكليات قبل الجزئيات التي تؤلفها ومعلوم أن من حق البسائط أن تتقدم على المركبات تقدم العمل على معلولاتها والمقدمات على نتائجها فالعلماء لم يتوصلوا إلى وضع قواعد العلوم كلها إلا بعد استقرائهم المفردات الداخلة في حكمها فأرسطوطاليس الفيلسوف العظيم لم يتوصل إلى وضع قوانين المنطق إلا بعد استقرائه طرق الناس في التعليل والبرهان والاستدلال وضرب الأقيسة واستنتاج النتائج، لأن القواعد هي نتيجة استقراء الأحوال المفردة وتلخيص لها، ولذا كان من الغلط البين أن نشرع في تعليم الولد قواعد العلوم كعلم النحو مثلا من قبل أن يعرف شيئا من الجمل المتنوعة التي يتركب منها الكلام في

اصطلاح النحاة بل من قبل أن يعرف معاني الألفاظ المفردة التي تتألف منها تلك الجمل.

وفضلا عن ذلك فإن الولد لا يفهم عبارة كتب العلوم لأنها بلغة غير لغته العامية التي لا يعرف بعد سواها ومعلوم أن الفرق عندنا بين اللغة الكتابية واللغة العامية عظيم جدا، ولذلك يجهد الولد في حفظ قواعد الكتب ومفرداتها غيبا حتى تصير ذاكرته كمعجم تقيد فيه الألفاظ أو كدفتر تجمع فيه خواطر الآخرين وما حصله غيره من الباحثين، وكان الأحرى أن يكون هو نفسه الباحث عن الخواطر والمحصل لها.

فلا بدع والحالة هذه أن نرى كثيراً من الأولاد إذا خرجوا من المدارس ينسون أكثر القواعد التي تعبوا في تحفظها والتي يذكرونها منها فإما تفيدهم لأنهم لم يتشربوها كما ينبغي ولا اختبروا صحتها بأنفسهم ولا انطبقت أحكامها عندهم على معلومات بسيطة تعلموها صغارا وسبق رسوخها في أذهانهم بحيث إذا انضافت إليها تلك القواعد امتزجت بها وارتبطت، ولذا تبقى مقلقلة متزعزعة وكل ما كان متزعزع الأساس لا بد أن يسقط على توالي الأيام.

ومن ذلك كله تتضح فائدة تعليم الولد بالتلقين الشفاهي وهو طفل قبل إرساله إلى المدرسة.

المحاضرة السادسة

التربية العلمية

لقد أتيت بحثي في التربية العقلية على كيفية إرهاف ذهن الولد وإعداده لتلقي العلوم والآن أبحث في كيفية تعليمه.

والفرق بين التربية والتعليم هو أن هذا قائم بتلقين الولد شيئا من المعارف بمقدار ما يتسع له عقله وتلك قائمة بإرهاف ذهنه شيئا فشيئا ليتهيأ ويستعد لقبول تلك المعارف؛ فالتعليم فرع من التربية لأنه مقصور على إمداد قريحة الولد بما يلائمها من العلوم.. أما التربية فتتناول ما فيه إنماء بدنه وتهذيب أخلاقه وتنوير عقله فكل من ربيناه فقد علمناه شيئا ولكن ليس كل من علمناه شيئا فقد ربيناه.

والتعليم يقسم إلى قسمين: التعليم البيتي، والتعليم المدرسية.. فلنبحث في كل منهما على حدة

المطلب الثالث عشر: تعليم الأطفال في بيوتهم

لا ريب أن الأم أفضل مدرسة أعدتها الطبيعة للولد لأنها ترافقه في زمن طفولته وهو الزمن الذي يكون فيه عقله أكثر مرونة وقابلية للتأثر بالتعاليم والإرشادات.

أجل أيتها السيدات أن بيتا يفهم من الأمهات أمثال حضراتكنّ فاضلات متعلمات هو أفضل من المدرسة لأن المدرسة تجمع مئات من

الصغار وكلهم على اختلاف مشاربهم وأمزجتهم وأميالهم يسامون لعناية معلم واحد قلما يكون أهلا لتعليم آحاد منهم فضلا عن الكثرة، وذلك لأسباب سأبسطها فيما بعد. أما الأم الحكيمة العاقلة فباستطاعتها أن تراعي طباع كل ولد من أولادها فتلقنه ما يوافق ميله وسنه واستعداده.

وأحسن واسطة لتعليم الأطفال هي التلقين الشفاهي على نحو ما تقدم لي بيانه في التربية الأدبية مع زيادة التبسط في شرح الأسرار الطبيعية والعوامل الجوية وسائر المحسوسات التي تقع تحت بصره وتجتذب اهتمامه للسؤال عنها.

وإذا أردنا أن نعلمه القراءة فبالطرق الحديثة المصطلح عليها الآن فإذا أحاكي معرفة صور الحروف نطقا ورسما فينتقل به إلى الكلمات المركبة من حرفين، فثلاثة كاسم الهر والكلب مع صورهما، ثم يتدرج إلى الجمل القصيرة التي تتركب منها هذه الأسماء ثم يتجاوز ذلك إلى قصص صغيرة سهلة المأخذ تتلى على الولد في ساعات الفراغ وتفسر له ألفاظها الكتابية بلغة عامية يفهمها، وبذلك تترقى لغته شيئا فشيئا بحيث يصير قادرا على تفهم اللغة الكتابية متى حان الوقت الذي يتعلم فيه بالكتب، وفضلا عن ذلك فإنه يجد في سماع تلك القصص الصغيرة لذة وفكاهة تنمي فيه قوة الملاحظة والتصور وتجعل فيه ميلا للمطالعة فيكتسب بذلك علماً وأدباً.

فإن رأت الأم أن تعلم ابنها شيئا من أركان على الحساب البسيط، فلتنتهز فرصة إعطائه بعض الثمار أو الحبوب فتجعله يعد ما معهُ ويضيف

إليه شيئاً ويسقط منه شيئاً ليعرف عدد ما يجتمع لهُ منها أو ما يبقي وبذلك يتوصل تدريجاً إلى تعلم علم الحساب.

ويحسن بالأم والأب أن يقرأ جهارا لدى أولادهما فصلا من كتاب مفيد كل يوم، وبذلك يعودانهم النطق على وجه الصحة والمحافظة على مخارج الحروف والأماكن التي يصح النبر فيها والوقوف عندها فإذا ما أصبح لأولادهما إلمام بالقراءة فينيطان بهم هذا الواجب مناوبة وحينئذ يحرصان على إصلاح خطأهم والاهتمام بتحسين نطقهم وإفادتهم عن مغزى ما يطالعونه في المصنفات الجليلة.

ومن الخطأ أن نخاطب أطفالنا بألفاظ وكلمات لا وجود لها في اللغة كالده للحار والدودة للعصفور والننه للحلوى أو نلثغ بالحروف ظناً أننا بذلك نسهل عليهم فهمها أو اعتقادا بأنهم لا يستطيعون فهم الكلمات الصحيحة، والحال أن الطفل يلتقط الألفاظ بالمزاولة وليس بالقوة العقلية فلا فرق عنده بين أن تكون صحيحة أو سقيمة بدليل ما نطالعه من نظم الأقدمين ونثرهم في حداثتهم وما نشاهده بين الأمم الأوربية الراقية من النطق المعادل بصحته للغة كتبهم وهو الأمر الذي حرمنا من نحن في العصور الأخيرة لما دخل على لغتنا من الحشو والركاكة والاصطلاحات الفاسدة بتقلب أحوالنا وامتزاجنا بالأجانب.

وقد تقدم في القول في المحاضرة الماضية بعدم إرسال الأولاد إلى المدارس قبل أن يتموا الحول السابع وذلك لأسباب أهمها أن أقسام الجسد تكون في السنين الأولي أخذة بالنمو السريع ولذلك يتحول إليها

أكثر أصول الدم وينصرف معظم قوى الجسد إلى الأعمال الغذائية فإذا أجهد العقل تحوّل قسم من هذه الأصول عن الأنسجة النامية واستخدم لإتمام وظيفة الدماغ فضعف الجسد وقل نموه هذا فضلا عن أن اجتماع الأولاد في محل واحد ساعات متوالية في كل يوم واستنشاقهم هواء غير طلق يعرضهم للأمراض والأسقام زيادة عن البالغين لأن سرعة النمو في الصغار ونشاط وظائفهم الحيوية تجعلهم أكثر قابلية للانفعال والتأثر، ولذلك أجمع الأطباء على وجوب راحة العقل في الأطفال لأن إكراه أدمغتهم على الأعمال العقلية تورثها تهيجا قد يعقبه متى خمد نقص في تكوينها أو تحويل في نشوئها أو تشويه قسم من أقسامها، وفي ذلك ما لا يخفى من الخطر على العقل والجسم معاً.

ولذلك لا ينبغي إرسال الولد إلى المدرسة إلا بعد أن يتم السنة السابعة وحينئذ لا يباشر تعليمه بالكتب بل بالتلقين الشفاهي إلى أن تنفد الأشياء التي يستطاع تعليمه إياها شفاها ومن ثم يبدأ بتعليمه على الوجه الذي سنبينه في الفصل القادم.

المطلب الرابع عشر: تعليم الأولاد في مدارسهم

إن غاية المدارس هي أولاً تقوية عقول الأولاد وأجسادهم لكي تصير قادرة على قضاء الأشغال والقيام بمهمات الحياة ثانياً تهذيب أخلاقهم وتثقيفهم بالعلوم والمعارف والآداب لكي يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع الإنساني. هذه هي الغاية التي يجب أن تنشأ المدارس من أجلها وليس إلقاء العلوم وتوفير أنواع الدروس لأن مجرد اكتساب

المعارف الكثيرة لا يقوي العقل ولا يزيد ذكاءه ولا يساعده على توخي السبل القويمة والأساليب الحسنة في الأعمال لأنه لا يربي فيه القوى اللازمة للتمييز والاستنتاج والحكم والاستدلال وامتلاك الأميال والاعتماد على النفس تلك القوى التي يتوقف عليها النجاح والفلاح في الحياة الدنيا، ولكي تقوم المدارس بتربية الأولاد وتثقيف عقولهم ينبغي أن تكون ذات رأس مال يمكنها دخله من الاستمرار على عملها فلا تتكل على ما تحصله من رواتب الطلبة إذ أن الرواتب لا تقوم بنفقاتها وأجور أساتذتها وإنما ذلك يقوم على أريحية الموسرين من محبي الخير ومعضدي العلم الذين يجهدون في سبيل نشر رايات المعارف ورفع شأن الوطن بما يبذلونه من أنواع المساعدة التي توفر للمدارس وسائل النجاح وتمكنها من تربية تلامذتها وتقوية أجسامهم وتثقيف عقولهم.

وقد أدرك الغربيون ذلك فنشطوا لمساعدة المدارس وعملوا على ترقيتها أو زيادة انتشارها فبذل الأغنياء أموالهم واستقطر الكتاب أقلامهم وأجهد رجال الأحكام عزائمهم في سبيل ناشئتهم وتهذيبهم وقد عنوا باختيار أساتذتهم من العلماء النابغين الذين يعتمد عليهم في تهذيب الأخلاق ويليق أن يكونوا قدوة للطلبة يقتدون بمحاسن صفاتهم ووافر أدبهم ومعارفهم ولا جرم أن من كان من ولايته أن يتعهد نفس الولد فضلا عن جسمه وتم بدرسه ولعبه وتهذيب أخلاقه وتقويم سيرته لمن الواجب أن يكون عظيماً بأدبه عظيماً بعقله وعلمه عظيم بفضله وحسن إرشاداته.

قال الإسكندر يوماً أنه وإن كان ابن فيلبس المكدوني جسماً فهو

ابن أرسطوطاليس نفساً لأنه إن كان فيلبس سببا لحياته فأرسطوطاليس هو الذي علمه كيف يعيش مكرما وما أحسن ما قال الشاعر.

أقـدم أسـتاذي علـى فضـل والـدي وإن كان لي من والدي الفخر والشرف
فـذاك مربـي الـروح والـروح جـوهر وهذا مربي الجسم والجسم من صدف

أما المدارس الشرقية فلا تزال في تأخر وانحطاط وماليتها في عسر وفاقة فيضطرها ذلك في الغالب إلى استخدام رجال غير أكفاء لمهنة التعليم الشريفة ممن يرضون بالراتب الزهيد ولكنهم يكونون بالحقيقة حجر عثرة في سبيل العلم والآداب بل صخرة ضخمة في ساحة التقدم والعمران لأن التلامذة يشبون على خطتهم الخرقاء ويستقون من سم مبادئهم العوجاء فضلا عن أنهم لا يستفيدون من تعاليمهم الفائدة المنشودة من المدارس بل جل ما يحصلونه مفردات علوم تحشى في أذهانهم حشواً كما تحشى الوسادة قشاً، فالولد الذي يتربى على هذا النمط يصبح وهو ابن خمس عشرة سنة المحجوبة زمانه ونابغة عصره حفظا لأنواع القواعد العامية والقصائد الشعرية يتلوها كالحاكي (الفونوغراف) فينتهج قلب والديه ويفتخر به أستاذه، ويترقب له الكل مستقبلا حسنا ولكنه متى نزل إلى ميدان الأشغال فقلما ينجح إذا فاته العلم الصحيح الذي يخرج الذهن وينبه الفهم ويجعل الرجل قادرا على إدراك معاني الحوادث وردها إلى أسبابها وتقدير عواقب الأعمال والتميز بين الفاسد والصحيح من الأقوال.

وقلما يكترث الناس عندنا لهذه الحقيقة، وقد ينسبون للعلم أكثر المضار التي تلم بالمتعلمين والحال أن الضرر يتأتى من كيفية التعليم لا من

العلم نفسه، والتعليم يقوم على أربعة أركان مهمة وهي (١) واجبات المدارس نحو المعلمين (٢) واجبات المعلمين نحو التلامذة (٣) واجبات التلامذة نحو المدارس (٤) واجبات الوالدين نحو الأولاد والمعلمين.

فواجبات المدارس نحو المعلمين هي أن تختار من الجهابذة أفراداً نبغ كل منهم في فن فيخصونه بتعليمه في مدارسهم مقابل راتب وافر يوازي أتعابه فيقتصر على تلقين ذلك الفرع في ساعات قليلة من النهار وما بنى من يومه يتفرغ فيه للمطالعة والتروي في الحقائق التي ينبغي أن يبثها في صدور الطلبة والأساليب التي يوافق سبك أفكاره فيها فإن الأستاذ لا يقوى على الوقوف نهاره بطوله أمام تلامذته بين إلقاء وسماع وحض وإرشاد وشرح وبيان لما في ذلك من التعب الذي يضعف صحته وعقله ويقهقر معارفه ويبعث به على الملل والضجر من تلك الحياة، وفي هذه الحال لا يتمكن من كثرة الشرح مع طول الأناة والنظر في مصلحة الطلبة على ما يقضي به الواجب.

ولا يكفي أن يكون المعلم ممن نبغوا في العلم واشتهروا بالفضل بل يجب أيضا أن يكون متضلعا بمهنة التعليم قدير على إيضاح أفكاره بأسلوب يسهل فهمه على الطلبة.

قال الدكتور شبلي شميل في مجموعته: "ينبغي أن يكون المعلمون من الذين تربوا جيدا وبرعوا في علم الأخلاق حتى يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملوه بحسب طبيعته وينبغي أن يكونوا أيضا من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابلية عقله ليردعوه عن الفاسد وينشطوه في

الاستعداد الحسن، فإن عقولاً كثيرة من أذكى العقول ينطفئ نورها كل سنة في المدارس من سوء المعاملة ومقاومة أميال العقل".

وواجبات المعلمين نحو التلامذة هي أن يقدروا القوة العقلية والجسدية لكل ولد فيعينوا له من الدروس ما يناسب حالة عقله وجسده ودرجة نموها، وأن يفرغوا الجهد في حض الكسلان على الدرس والاجتهاد باتخاذ الوسائط الناجعة لذلك، وأن لا يحملوا تفاوت بين التلامذة في المعاملة بل ينظروا إليهم بعين المساواة والتودد، وأن يكونوا لهم مثلا في المحافظة على الآداب والصدق واللطف والحزم والمحافظة على الوقت.

أما واجبات التلامذة نحو المدارس فمحصورة بطاعتهم لمعلميهم واحترامهم لقوانين المدرسة واجتهاده في دروسهم وإصغائهم لتعاليم أساتذتهم وإرشاداتهم مع المواظبة على الرياضة الجسدية والعقلية.

بقي واجبات الوالدين نحو المدارس فهذه تقوم بإطلاع المعلم على أخلاق أولادهم وسجاياهم ومعاينتهم تسهيلا لما يتجشمه في تهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم لأنهم لما كانوا أعلم الناس بما يلائم أولادهم وأكثرهم معرفة بحقيقة أخلاقهم وماهية استعدادهم كانوا أجدر بمعاونة المعلم على تربية أولادهم تربية حسنة، وعليه يجب أن يلاحظوهم بدقة واهتمام ويتبعوا خطواتهم حتى يتمكنوا بمعاونة المعلم من إصلاح حالهم وإرشادهم إلى السبيل السوي.

بقي من الواجبات ما هو مشترك بين المدارس والوالدين وهي الاهتمام بنظافة الأولاد وتعويدهم العناية بملابسهم وتقليم أظافره

وتحذيرهم من نقل الدراهم لما تحمله من الأقذار والجراثيم المرضية القتالة وحملهم على الإقلاع عن عادة لحس الأصابع التي كثيرا ما يعمد إليها الأولاد عند تقليب صفحات الكتب، وكذلك لحس الأقلام الرصاصية وقت الكتابة، ولحس الحبر عن الورق كلما راموا إزالة كلمة سطروها خطأ لما في هذه العادات من الأمور المنافية للذوق والأدب فضلا عن الإضرار بالصحة.

وأختم محاضرتي هذه بإيراد ملاحظة جديرة باهتمام الوالدين والمعلمين، وهي أننا نستعجل الولد بالنمو العقلي فإذا أنسنا منه مقدرة على حساب الأرقام مثلا فنأخذ بإلقاء الأسئلة عليه ودفعه إلى حل المشكلات منها ونبتهج كثيرة إذا رأيناه وهو ابن ثماني سنوات ملما بجداول فيثاغوروس، والحال أن الولد الذي يسرع نضج ذهنه قبل أبيه فإنه يفرغ ما في وطابه وهو حدث ثم يقف كالولد الذي تشب قامته قبل الوقت، وكثيرا ما يموت محتضرا، وإن عاش، عاش سقيما، وعلى الجملة فلا نترقب أن يكون الولد اليافع كالكهل قوة وعقلا كما أننا لا نرجو أن يبلغ حد الكمال المطلق أحد من الناس فإن الكمال لله وحده.

المحاضرة السابعة

المطلب الخامس عشر: في تربية الولد باعتبار الصناعة

من المعلوم أن الناس منقسمون باعتبار مركزهم وثروتهم إلى طبقات يختلف كل منها عن الأخرى منزلة واستعدادا، وعليه ينبغي أن تكون التربية العامية على أنواع يلائم كل منها إحدى تلك الطبقات فمن كان من أهل الطبقة العالية يجب أن يلقن العلوم الكمالية التي ترشحه لما قد يتولاه يوما من الأعمال العظيمة كالقضاء والسفارة والرئاسة وغير ذلك من الأمور المهمة.

ومن كان من الطبقة المتوسطة وبدا فيه استعداد وميل للفنون الجميلة أو الطب أو المحاماة أو التجارة من الواجب أن يعنى بتلقينه العلوم التي تساعده على إتقان تلك الحرف بالممارسة. أما من كان من طبقة العوام فالأفضل أن يربى تربية عامية تؤهله الآن يكون عاملا بيده لكسب معاشه، وذلك أن يتعلم أصول الحرفة التي يميل إليها علما عقليا متقنا يساعده بعد ذلك على ممارستها عملا، ويكون ثمة في وسعه أن يوفيها حقها من الأحكام والإتقان ولما كانت الأعمال على أنواعها لا تحصل بالعلم وحده؛ فمن الضروري أن يصحب التعليم العقلي شيء من التعليم العملي، وهو ما نرى مدارسنا ساعية إليه في هذه الأيام.

ومن واجبات الوالدين أولا والمعلمين ثانيا أن يراعوا ميل الولد

واستعداده للصناعة التي يحملونه على تعلمها، وذلك أن يراقبوه منذ الصغر ليروا أي عمل يميل إليه بالطبع وأي شيء هو أكثر استيقافا لفكره واستلفاتاً لنظره وأي علم يكون أبرع فيه وأكثر ارتياحا لتحصيله فيتخذوا من ذلك دليلا على ميله الخاص إليه واستعداده الغريزي له ومتى توفقوا إلى ذلك وجب أن يبذروا بذوره في تربة عقله ويحولوا أفكاره إلى وجوب إتقانه ودرس العلوم التي تساعده على زيادة الانتفاع به والإثراء بواسطته فإنه من الخطأ أن يحمل الولد على تعاطي صناعة أو تعلم فن لا يلائم ميله وحالته وليس في سجيته استعداد له إذ أنه لا يمكن أن يبرع به أو ينجح بواسطته كما لو تبينا في عقل الولد وهنا، أو عدم ميل لعلم الرياضيات فلا يعقل أن يكون يوما مهندسا بارعا أو رياضيا مشهورا، وكذلك إذا كان ابن أبوين فقيرين فإنه من العبث أن يتعلم فن التجارة لما يستلزم ذلك من المال، وهكذا إذا كان فيه بعض العاهات كضعف البصر فلا يجوز أن يتعلم فن الصياغة مثلا بل من الواجب في كل حال أن تراعى حالة الولد وقابليته للعلم فيتلقن منه ما كان ملائماً لحالته الطبيعية لازما لحياته العملية.

أما في الشرق فإن المدارس كانت لعهد قريب متشابهة في أنواع علومها مقصرة في جميعها عن حاجة الأهلين، ولم يكن الوالدون يبالون في أمر مستقبل بنيهم، بل كان ولا يزال العاقل منهم من يهتم بتعليم ولده إلى أن ينال الشهادة، ومن ثم يقف متنفسا نفس الراحة كأنما واجباته الوالدية قد انتهت عند هذا الحد من الاهتمام، وقد فاته أن العلم وحده

لا يضمن نجاح مستقبل الولد بل كثيراً ما يكون سبب شقائه وفقره، وذلك لأنه يبعث به على الخيلاء والتمسك بأذيال المجد والعلاء بحيث يأنف من الأعمال الصغيرة، بينما أن ضيق ذات يده أو صروف حوادث دهره تحول بينه وبين بلوغ ما يتمنى من الأعمال العظيمة التي تناسب مقامه العالمي فإذا لم يقيض له الحظ خدمة في الحكومة أو يسخر له من يمده بالمال لإنشاء مصرف أو ما شابه من الأعمال ظل حياته بطولها بين عراك وجهاد إلى أن تنفذ عزيمة شبا به رويداً رويداً فيعود قانعا من دخله بما هو دون الكفاف.

ومن ذلك يتضح أن العلوم لا يوافق أن تكون واحدة لكل من أفراد الناس فإنه كما لا يحسن أن يكون جميع الناس نجارين أو بنائين أو حدادين كذلك لا يناسب أن يكون الجميع أصحاب بكالوريا، بل الأفضل أن يتحول كل منهم إلى وجهة عملية صناعية كانت أو زراعية، وقد تنبهت حكومتنا الساهرة إلى هذا الأمر فنشطت في السنوات الأخيرة لإصلاح حالة التعليم والعناية بتربية العوام تربية علمية عملية توافق حالتهم وساعدها في ذلك رجل الفضل والنبل دولة الأمير حسين كامل باشا؛ فأنشأ بهمته وسعيه مدرسة صناعية في دمنهور، وكذلك دولة الأمير يوسف كمال باشا المشهور بفضله وإحسانه في ميدان الوطنية الصادقة، وأنشأ من ماله مدرسة الفنون الجميلة في مصر، وأملنا أن يحذو حذوها جميع أعيان الأمة ويرفعوا شأن المدارس إلى الحد الكافل النجاح أولادها على اختلاف طبقاتهم، وبذلك تصلح أحوالنا ويشب كل

من أولادنا على علم تام من أمر مستقبله واستعداد لعمل موافق لذوقه ومقدرته بحيث لا يخطر له يوما أن يعود عنه أو يأنف من تعاطيه، بل يتحول إليه بكل قواه ويبذل جهده في إتقانه والتفوق بعمله كما هي الحال في البلدان الراقية.

وقد تقدم لنا القول أن الاهتمام بمستقبل الولد ومعرفة نوع العمل الملائم له لا يتمان إلا بعد اختبار ميله واستعداده، ولما كانت الأم أقرب الناس إلى الولد وأكثرهم ملازمة له فهي ولا شك أقدر على معرفة حاله ودرس أخلاقه، ولاسيما بما أوتيت من قوة الفراسة ورقة الشعور فضلا عن رابطة الألفة والعشرة التي تمزج روحها بروح ولدها بما يجعلها أكثر اختبار بأسرار أمياله وأشد تأثيرا على أفكاره، وعلى ذلك فيكون من أهم واجباتها أن تشارك الرجل في أمر مستقبل ولدهما وتحد معه بتربيته، وبذلك تضمن له النجاح والفلاح.

المطلب السادس عشر: في تربية الفتاة العلمية

تقدم لي القول في التربية العامية في المحاضرة الماضية أن تعليم الصبيان يجب أن يختلف باختلاف طبقات الناس ودرجة استعدادهم وماهية الوجهة التي يقصدونها في تحصيل رزقهم، وذلك اقتصادا للوقت وسعيا لإتقان العمل أو الحرفة التي يرومون تعلمها فالطبيب مثلا لا تهمه أصول فن التجارة، وإذا علمناه الحساب وعلى مسك الدفاتر فإنما نكون قد أضعنا وقته عبثاً وصرفنا قوة عقله عن إتقان علم الطب الذي يحتاج إليه، وكذلك الخياط لا يفيده أن يتعلم كيفية تركيب الأدوية وماهية

العقاقير التي تتألف منها بل ذلك من شأن الصيدلي، وهكذا سائر الأعمال فإن كلا منها قائم بنفسه لا يضطر الرجل إلى إشراك أعمال أخرى به.

أما المرأة فحالتها غير حالة الرجل، وهي واحدة فيها سواء الزوجة أو الوالدة وواجباتها لا تتغير في حالتي الفقر والغنى، بل هي دائما أبدا في حاجة إلى تربية أولادها والسهر على راحة رجلها وتمريضه والحرص على أمواله وخدمة أسرتها وخياطة ملابسها إلى غير ذلك من الأعمال النسائية العظيمة الأهمية فضلا عما تصادفه في حياتها من إخطار اليتم والترمل والشكل والضيق والفاقة وما تقع فيه من مشاكل الوراثة والوصاية والبيع والشراء الأمور التي كثيرا ما ينجم عنها ذهاب أموالها وضياع حقوقها متى كانت جاهلة.

وعلى ذلك نرى من الواجب أن تتعلم علما صحيحا يمكنها من القيام بهذه الواجبات وهو الأمر الذي لا تزال مدارسنا مقصرة فيه حتى الآن فإن جملة مدارس الفتيات عندنا لا تتجاوز في تعليمها حد المبادئ البسيطة وهذه لا تفيد وحدها في تهذيب الفتاة وتعليمها وإنما يصح أن تكون أساسا لما يأتي بعدها من العلوم فإذا لم يأت بعدها طمرت رمال الأيام على ذلك الأساس فمحت آثاره وذهبت بالفائدة التي تعود على الفتاة بل قد يكون منه بعض الضرر بأن يبعث بالفتاة على الغرور والاعتداد بالنفس واحتقار ذويها.

وأول شيء يجب الالتفات إليه في تعليم فتياتنا هو اللغة العربية

فإنها ضرورية لفهم ما يطالعنه من كتبها وأخبار أهلها وآداب كتبها على أن لا يقتصر في تعليمها على المبادئ البسيطة كما هي الحال الآن فإن ذلك يجعل حافظتهن عبارة عن وعاء مشحون بقواعد لغوية وألفاظ ومترادفات لا تجديهن فائدة تذكر في مستقبل حياتهن إلا على قدر ما تفيدهن قواعد الصرف والنحو في تربية أطفالهن، بل يجب أن يعرفن آداب اللغة ويتعلمن تاريخ التمدن وعادات الأمم الراقية في المدنية ويتمرن على الإنشاء فيطرقن المواضيع ويصورن الأفكار بحيث تنمو فيهن قوة الملاحظة وينغرس فيهن الميل إلى المطالعة وإدراك أفكار العلماء وآرائهم فيستفدن منها خبرة ورشاد ويصبحن بذلك موضع احترام الرجل فلا يعود من ثم ينظر إليهن نظره إلى تمثال مزين وجد لتسليته أو طفل لا تتعدى قوة إدراكه حدود التبرج والأزياء، بل يصبح حديثهن شهيا في المجالس ومجموعة حكم وفوائد في البيوت يرضعها الأطفال مع اللبن ولا يخفى على العاقل ما في ذلك من تعظيم الأولاد لوالداتهم وانقيادهم لإرادتهن وأحكامهنّ.

ثم يجب أن يتعلمن الجغرافيا والحساب والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي بشرط أن لا ينسج في هذه العلوم على منوال يشحن به أذهان الفتيات بحدود ورموز وألغاز وأسماء عويصة لا تلبث أن تزول من حافظتهن بمزايلة المدرسة ويذهب الوقت والتعب في تحصيلها ضياعاً بل يجب أن تتخذ هذه العلوم كذريعة لتربية العقل وتنوير الذهن ومساعدة الفكر على الانطلاق بين هضبات الطبيعة واستنشاق نسيم

أسرارها ومرافقة أهل العلم على أجنحة البخار والهواء وتحت الأرض وفي عرض الأوقيانوس ونقطة القطب المعرفة اكتشافاتهم واختراعاتهم العامية والصناعية والطبية فيتلذذون باستطلاع نتيجة مساعيهم وتوقع فوائدها ويطربن من مطالعة المقالات الجميلة والقصائد الرنانة ويصرن قادرات على إدراك علل المحسوسات وكيفية نظامها وتكوينها واندثارها والعلم أسرار البخار والكهربائية وما يصنع بواسطتهما من الآلات العجيبة بحيث إذا وقفت سيدة أمام آلة التلفون أو سمت بالتلغراف اللاسلكي تكون على علم بكيفية مقدرتهما على نقل الأصوات وإشارات المخاطبة.

وينبغي أن يحطن عاما بالقانون إلى حد يجعلهن يعرفن قانون المعاملة والوصية والبيع والشراء لا أن يصرن متشرعات، وكذلك ليس من الضروري أن يتعدى في تعليم المعاني والبيان حد النصوص القليلة التي تجعل البنات يفهمن ما يقرأن ويدركن وجه الحسن منه، ولا بأس من إضافة على العروض والقوافي إلى ما ذكرنا بحيث يميزن بين الأوزان ويدركن صحيح المعاني من فاسدها.

وأفضل طرق التعليم ما التي بشكل محادثات بسيطة تشترك فيها التأمينات بالاستفهام والاستنتاج فيكون لهن من وراء ذلك فائدة ولذة تساعد على رسوخ العلم في أذهانهن وتميط النقاب عن أسرار المشاهد الطبيعية التي تقع تحت أبصارهنّ.

ويجب أيضا أن يتعلمن مبادئ علم الصحة وفن الاقتصاد المنزلي اللذين عليهما تتوقف سلامة الأسرة صحيا وماديا، وهذان العاملان لا أثر

لهما في مدارسنا مع أنهما أكثر ضرورة للبنات من سائر ما يقتبسنه من العلوم لأن عليهن تتوقف راحة الأزواج والمحافظة على ثروتهم وهن تناط بهن تربية الأولاد ولعنايتهن توكل صحة أجسادهم.. جدير بهؤلاء اللواتي سيقضين الحياة زوجات وأمهات أن يكون تعليمهن موافقا لتلك الحياة معينا لتحمل الأتعاب ومساعد لتدارك الأخطار والأمراض التي يتعرض إليها أفراد المجتمع.

ربما تدهشن لأقوالي أيتها السيدات الفاضلات أو تستكثرن أنواع العلوم التي أشير بصلاحية تعليمها للفتيات، ويخيل لكن أني أقصد بذلك أن تصير بناتنا في مصاف الفلاسفة والعلماء وأن يقضين مدة الشباب ضمن جدران المدارس كلا فهذا ليس الذي أقصده، وإنما أقول بوجوب إلمامهن بالعلوم المذكورة إلى الحد الذي تحتاج إليه المرأة في معاملة رجلها وتدبير منزلها والاعتناء بأولادها فما ارتقت امة إلا وكان أساس رقيها تعليم النساء، ولا غرو فإن عليهن تتوقف سعادة الأمة وعلى تعليمهن مدار ارتقاء الأفراد إذ تنبث روح آدابهن وتعاليمهن في الشعب فتدفعه في مدارج الارتقاء والنجاح وتسير به إلى مراقي الكمال والفلاح، وأما إذا أهمل تعليمهن فتنعكس الآية ويصبح وجودهن مدعاة للتقهقر والانحطاط ومهدا للخمول والهوان.

وحريٌّ أن تكون كتبهنَّ مزدانة برسوم مشاهير الرجال وتراجم شهيرات النساء وصور المتاحف والآثار الشهيرة التي تجعلهنَّ يقدّرنَ منزلة أهل العلم ويدركن أهمية الأشياء التي حولهن فيبثها في صدور

أولادهن وبذلك يربين فيهم الذوق الحسن والمقدرة على معرفة قيمة الأشياء الجميلة، الأمر الذي نحن في حاجة كبرى إليه، وقليلات منا اللواتي يعنين في تربية الذوق في أولادهن، ولذلك نرى الرجل يقف في أعظم المتاحف وينظر إلى أهم النقوش المتقنة ويسرح بصره في ألطف المشاهد الطبيعية دون أن يستوقف فكره أو يجتذب اهتمامه شيء منها بل هو إذ دار العاديات على مقربة منا ومع ذلك قليل الذين يعنون بزيارتها في حين أن الغربي يبتاع الصورة النادرة بألوف من الدنانير ويطوف البلدان ويقطع البحار ويجوب القفار لمشاهدة المتاحف والآثار والوقوف على سرائر العلى والتاريخ وإذا رأى في طريقه زهرة نابتة على حافة الطريق وقف وحدق فيها معجبا بدقة أوراقها ولطف تركيبها ورواء لونها وإذا مر بتمثال لأحد مشاهير أهل العلم والسياسة والفضل وقف متهيباً وقلبه يضرب احتراماً وإجلالاً.

وعلاوة على ما ذكر من أنواع العلوم التي ينبغي تعليمها للفتيات علم الموسيقى والفنون الجميلة فإنهما من أفضل الوسائل التي تمرن العين والأذن على تمييز الألحان والأشكال ومعرفة الحسن فيها من الفاسد فضلا عن أنها تساعد على تفريج الكروب وطرد الآلام والأحزان فجدير بالفتاة أن تتعلمهما فتجد فيهما خير مؤنس في وحدتها وأجمل عمل تتلهى به في ساعات الفراغ بل هي إذا أتقنت تعلمهما كانا لها سياجا يصونها من ذل الفاقة ويسهل لها سبل الكسب إذا عضها القدر بنابه، ولذلك يجدر بالمدارس أن تعنى بتعليم البنات، فضلا عن عنايتها

بتعليمهن الخياطة والتفصيل والتطريز والتصوير والرسم والحفر والتنزيل، وغير ذلك من الأعمال التي تساعد السيدة الموسرة على تمضية الوقت بالأمور النافعة وتكسب الفقيرة أرباحاً مادية، وبذلك تصبح المرأة مخلوقاً مستقلاً ذات حزم ومعرفة تحفظان منزلها في المجتمع الإنساني وتمكنانها من الثبات لدى هجمات النواب وتقلبات الحوادث. .

المحاضرة الثامنة

المطلب السابع عشر: في تربية الفتاة باعتبار تدبير المنزل

جاء في مؤلف السيدة بيتون الانجليزية في تدبير المنزل هذه العبارة «إن ربة البيت تشبه قائد الجيش فإن روحها منبثة في جميع أطراف المنزل ومنظورة من الخدم فإذا أتمت واجباتها بإتقان واحتفظت بالآداب العالية والسهر والانتباه تكون قدوة لخدمها فيحذون حذوها ويجتهدون في إتمام واجباتهم»

أجل إن سيدة المنزل مكلفة بأعمال وواجبات لا مندوحة لها عن القيام بها سواء كانت فقيرة أو غنية؛ فعلينا أن نعلم فتياتنا تلك الواجبات منذ الصغر حتى لا يقصرن فيها في الكبر، وعلينا أن نعودهن عيشة البساطة والنظافة وأن لا ندعهن يؤجلن إلى الغد ما يستطعن أن يفعلنه اليوم فإن كل يوم يأتي فيه عمله فإذا أضفن أعمال اليوم إلى أعمال الغد نتج عن ذلك مضاعفة الأعمال وزيادة التقصير فيها، وأحسن واسطة تمكن الفتاة من الأعمال الكثيرة هي تقسيم الأوقات وتنويع الأشغال، وبذلك نجد لكل عمل وقتا وتتجدد فيها القوة لمتابعة الأعمال بمجرد التنقل فيها من شكل إلى آخر.

يجب أن نربي بناتنا على حب العمل ونغرس في أذهانهن وجوب القيام بالأشغال المنزلية والصناعات اليدوية. يجب أن ندربهنَّ على

تمريض المرضى وتربية الأطفال ودفع الأسقام عنهم فإن من الخطأ ما كانت تعتقده الأمهات قديماً من أن التحدث بتربية الأطفال معيب لدى الفتيات كما أنه من الخطل أن تعتقد الفتيات أن الطبخ غير لازم إلا للفقراء منهن فإنه مهما توفرت أسباب الغنى للفتاة وكثرت لديها الخدم فلا بد لها من معرفة فن الطبخ حتى تتمكن من معرفة موضع الخلل في صنع الطعام وتنبيه الطهاة إلى إصلاحه وإلا اضطرت لأن تكون أسيرة بذوقها للخدم خاضعة لأميالهم فيما تكره؛ فعلى الأمهات أن يوجهن جل عنايتهن إلى تدريب بناتهن على الطبخ وسائر الأشغال المنزلية والواجبات البيتية، وبذلك يؤهلن لأن يكن ربات أسر ومديرات بيوت..

أما التي تترفع عن الأعمال أنفةً منها أو كسلا فإنها تكون عالة على زوجها بل حملا ثقيلا يضايقه فوق ما يتحمله من مسؤولية الأسرة وإعالتها وضمانة مستقبلها إذ يضطر لأن ينفق على الخدام والمراضع والمربيات والطهاة والخياطات ما يكفل حفظ نظام المنزل كأنما هو خلق ليقوم بواجبات الرجل والمرأة معا، وفي ذلك ما فيه من الحيف ومخالفة الأحكام العقلية والطبيعية، فضلا عن أن الخدم مهما كثر عددهم فهم لا يقومون مقام ربة البيت من حيث النظام والترتيب والاقتصاد.

كان لأحد سراة الشرقيين ابنة يحبها ويبالغ في رفاهيتها، ولم يكن يسمح لها في دخول المطبخ على الإطلاق فكانت نتيجة ذلك أنها ذاقت مع زوجها بعدئذ أنواع العذاب والتعب لجهلها فن تدبير المنزل، وعلى الخصوص صناعة الطبخ فكان زوجها كلما أراد إصلاح خطأ

الطاهي يذهب إلى أصدقائه فيستفهم من نسائهم عن أفضل الطرق لذلك ثم يعود وهو يعض شفاهه حسرة وألما مما يجده في نظام البيت من الخلل وما يحمله مرغما من ملاحظة الخدم وضبط حساب النفقات، على أن الحال لم تطل به كثيرا على هذا المنوال لأنه بعد سنوات مضت أصيب بالإفلاس فكان ذلك عقابا لتلك الزوجة وعبرة لسواها من النساء.

ولو أن المرأة تستفيد من هذه الرفاهية التي يضحي الرجل حياته في سبيلها ويعرض ماله للضياع من أجلها لهان الأمر ولكنها تضر بجسدها وعقلها فتضعفهما وتسقمهما وتحط من قدرها في أعين أفراد أسرتها إذ تكون بمنزلة صفر عن يسار عددهم.

ومما يحسن أن تمرن الفتاة عليه وضع الشيء في محله فإن كثيراً من الآنية الثمينة والرياش الجميلة ودواعي الزينة قد تقل قيمتها وتنبو العين عنها لمجرد وضعها في غير المحل المناسب لها. وأهم ما يجب اتباعه في تدبير المنزل هو الاقتصاد، قال أحد أدباء الانجليز أن المال لا يجلب السعادة للإنسان، ولكن السعادة لا تأتي بدونه؛ فعليك بالاقتصاد.

أجل يا سيداتي إن المال لازم للإنسان بل هو أهم ركن من أركان حياته إذ يتمكن بواسطته من نيل أهم رغائبه ولاسيما في عصرنا الحاضر الذي زادت فيه النفقات إلى حد لا بد منه في شرع التمدن وما يتبعه من دواعي الزينة والرفاهية والبذخ والإسراف، وأفضل وسيلة لإحراز المال هي الاقتصاد وأسهل واسطة للاقتصاد هي أن يستغني المرء عن أشياء كثيرة.

شوهد يوماً شيخ حكيم يسير في سوق حافلة بالحلي الثمينة والتحف النادرة وهو ينقل نظره من حانوت إلى آخر؛ فسأله أحد أصدقائه عما إذا كان يرغب في شيء منها؛ فأجابه باسماً: إنني أنظر لأرى كم يوجد من أمتعة وأشياء لا أحتاج إليها.

ولا غرو أن في عبارة هذا الحكيم، العبرة، يتبين لنا منها أن كثيرا من الأمور التي تبذل المال في سبيل إحرازها يمكننا الاستغناء عنها مثل أنواع الزينة والملابس والاتفاق على الأدب والرسميات وغير ذلك من الأمور التي لا يضر اجتنابها، بل قد يكون منه فوائد أدبية فضلا عن الفوائد المادية على أنه يوجد بين النساء من إذا تولت أمر النفقة تجهد في التقتير على أسرتها فتمنع عنهم ما هو لازم لحياتهم وصحة أجسادهم فتضربهم من حيث تقصد توفير بعض دريهمات قد تضطر لأن تنقدها يوما للأطباء والصيادلة، ومن ذلك يتضح ما على السيدة من دقة الملاحظات ومراعاة الواجب في كيفية الاقتصاد.

وقد تظن بعض النساء أن اتباع خطة الرجل بالإسراف من جملة الضروريات أو من موجبات الانتقام وقد يعتذرن أحيانا بقولهنَّ: لمَ لا ننفق على أنفسنا ونعيش في سعة ما دام المال ذاهبا من أيدي رجالنا في كل حال.

أجل.. إن من بعض الحق في ذلك ولاسيما إذا كان رجالهن من يتولون أمر الإنفاق ولا يدعون لنسائهم سبيلا لتدبير المعيشة بما يمكن معه التوفير، فأفضل ما تداوى به مثل هذه الحال هو أن تقنع المرأة زوجها بأي

الوسائل الممكنة أن يجعل لها راتبا شهريا، وحينئذ تتمكن من تدبير معيشتها بشكل يضمن راحتها ويحفظ لها من فضلات المال درعا يقيها شر العوز والفاقة. وأفضل وسيلة لإقناعه بذلك هي أن تحافظ المرأة على الدراهم التي تصل إلى يدها وتتدبر في أمر إنفاقها بحكمة بحيث تجعل في زوجها ثقة بحسن تدبيرها واقتصادها ومن ثم لا يبخل عليها بالمال ولا يتأخر عن تسليمها راتبا كافيا تنفقه بحكمتها على البيت والأسرة.

والاقتصاد واجب مقدس على ربة البيت يدعوها مركزها الطبيعي للقيام به؛ فأول ما يجب أن توجه اهتمامها إليه هو أن تجعل معيشتها في درجة معادلة لحالة زوجها المادية فلا تجهد نفسها عبثا مجاراة من هنا أوفر منها غنى وأكثر بذخا لكي لا تضطر بسبب ذلك إلى التقتير على آل منزلها فإن الظهور بمظهر موافق لحالتها المادية مع النظافة والآداب، لأفضل كثيرا من التلبس بالجاه الكاذب الذي يعود على صاحبته بالتعب الكثير والخراب العاجل، على أننا لو تبصرنا قليلا لرأينا في الاعتدال جمالا لا يقاس بالجمال الظاهري مهما بولغ في إتقان الزينة ولبس الحلي والحلل، فإذا ما رأت السيدة ابتسامة الارتياح والشكر مرسومة على شفاه زوجها وأدركت ما لها عنده من المنزلة السامية والثقة التامة تشعر بأنها حاصلة على سعادة لا يمكنها أن تنالها من البذخ والزينة مهما أكثرت منهما. ومتى أدركت السيدة هذه الحقيقة فقد اجتازت مرحلة كبيرة نحو الاقتصاد المنزلي وسهلت لبنيها وسائل الصحة والعلم والرفاهية مع حفظ نظام المعيشة وتوطيد الثقة الزوجية، وذلك بتضحية قليل من رغائب النفس التي لا فائدة منها.

وهناك أمر آخر واجب على السيدة إتمامه وهو أن تعمل بنفسها ما يمكنها أن تستغني به عن مساعدة الغير، ولا يكفي أن تشتغل فقط لمجرد التسلية بل يجب أن تفضل من الأشغال ما يخفض من أعباء النفقات فلا تشتغل مثلا بتطريز مخدة وتستأجر الخياطة لعمل قميص ابنها ولكن إذا أتمت الأشغال اللازمة لأسرتها فلا بأس من أن تلهو بما يحلو لها من الفنون الجميلة والأعمال الآيلة إلى ترتيب المنزل وتزيينه فإن هذه من الكماليات التي على حسنها ولزوم وجودها في المنزل ليست إلا ثانوية بالنسبة للضروريات.

والآن تسمحن لي أيتها السيدات أن أدخل وإيا كن إلى المطبخ فنبحث فيما يتعلق به بوجه الاختصار وعلى قدر ما يسمح لي المقام لأن المطبخ على ما يبدو لنا من صغره وحقارة منظره يستغرق من البحث ما لا تكفيه محاضرة أو محاضرات بل هو مما يستغرق المجلدات.

قال بسمارك: "إني لا أستحسن السيدة في حال مثلها وهي في المطبخ".. ومعلوم أن ذلك الرجل العظيم لم يقصد بقوله أنه يرتاح لمشاهدة السيدة وهي تغسل الأطباق والحلل، بل أن يراها عاملة على ملاحظة مطبخها ومعاينة كل ما يصنع فيه من الطعام، وسواء كانت هي التي تشتغل بيديها أو لديها الخدم والحشم فلا بد لها من مراقبة جميع معداته وإحصاء نفقاته والتميز في المواد التي يبتاعها الطهاة ومعرفة أثمانها ووزنها.

كانت إحدى السيدات الموسرات تشكو دائما من كثرة النفقات في منزلها مع عدم وجود الراحة التامة في نظامه؛ فسمعها يوما أحد

أصدقائها وهو من الرجال الحكماء فوعدها بأن يجد لها وسيلة فعالة لمداواة تلك الحال، وعليه أحضر لها علبة صغيرة من خشب الأبنوس لطيفة الصنع خفيفة الوزن، وقال لها: "احملي هذه في كل صباح وطوفي بها غرف المنزل وكراره ومطبخه ومتى انتهيت من ذلك عودي إلى سابق معيشتك؛ ففي هذه العلبة سر لا يباح لك الاطلاع عليه إلا بعد مرور عام كامل من هذا اليوم وهو يضمن لك نظام المنزل وإقلال النفقات".

ففعلت المرأة ما أشار به هذا الحكيم فاستقامت أمورها وخفضت نفقاتها إلى حد الثلاث، ولذلك تاقت نفسها كثيرا إلى معرفة ما تحويه تلك العلبة فما صدقت أن انقضى العام حتى فتحتها ونظرت فإذا في داخلها ورقة صغيرة كتبت فيها العبارة الآتية: (من واجبات ربة البيت أن تهتم بتدبير المنزل بنفسها) هذا كل ما في العلبة، على أن السر الحقيقي لم يكن في العلبة بل في طواف السيدة في المنزل لأنها بذلك كانت تلاحظ تقصير الخدم فتنبههم إلى واجباتهم وترى بعينها كل ما يأتي به الطاهي فلا يستطيع بعد ذلك أن يخادعها بالحساب أو يقيد ثمن شيء لم يبتعه في ذلك اليوم.

وقد تدهشن يا سيداتي إذا قلت لكن أن كثيراً من الأمراض التي تنتاب العائلات وتضر بأجسادهم تأتي عن بقايا اللحم القليلة التي تعلق في خشب الكرسي أو اللوحة التي يستعملها الطهاة لتقطيع اللحم ثم لا يعنون في غسلها جيدا فإذا ما لمست اللحم الجديد أفسدته وجعلته مضرا بآكليها، وهكذا الخضر التي تؤكل بدون طبخ كالخس والفجل

وخلافه، فإنها كثيرا ما تحمل جراثيم الحمى وغيرها من الأمراض فتفتك بآكليها إذا لم يبالغ بغسلها جيداً.

اتفق لي أن قرأت مقالة لأحد الأطباء في أميركا بين فيها أن أسباب الإصابة بالدودة الوحيدة هي أكل الخضر النيئة في حالة القذارة، وذلك أن دم الخنزير قابل لنمو هذه الدودة وهي قلما يخلو منها هذا الحيوان، ومعلوم أنه متى وجدت جراثيمها في الدم لا بد أن تظهر في البراز أيضا بحيث أنه متى رعت الخنازير مكانا تركت فيه أثرا من برازها ممزوجة بجراثيم الداء فإذا جاء وقت استنبات الخضار ظهر عليها شيء من تلك الجراثيم تحملها أوراقها النضرة وتنقلها إلى المعدة.

ومع ذلك فقد نرى من النساء من تشاهد ولدها يأكل الخس من البائع مباشرة بدون غسل فلا تنهاه بل هي إذا قيل لها في ذلك تجيب (خليه يتعود) ولكن بربكن أين وجه الفضل في تلك العادة حينما تجرِع الأم ولدها بيدها كأس الأسقام مترعة بالميكروبات القتالة وتسوقه بجهلها إلى ساحة الموت التي هيهات أن ينجو منها ثم تقول (خليه يتعود).

وعلى الجملة فإن الفتيات قلما يدركن ماهية العناية الصحية والواجبات البيتية فيستخففن بها زاعمات أنها ليست من الأمور التي يجب أن يعبأن بها، وأنه يكفي ربة البيت ولاسيما الموسرة أن يكون لديها وصيفة أمينة توكل إليها إدارة أعمال المنزل وملاحظة الخدم والمطبخ. وفاتها أن كثرة الخدم في البيت تستدعي زيادة اهتمام السيدة وتيقظها لأن الخطر منهم يصبح أشد وسبل الخيانة والسرقة أوسع. ولا

يكفي الفتاة أن تكون عارفة بالأعمال البيتية بل أن الذوق والمهارة من أول واجباتها وهذا ما يمكنها اكتسابه بالاختبار والمطالعة ومعاشرة فضليات النساء..

هذا ولو أردت أن ألم بأطراف هذا الموضوع وأتناول بحثي كل دقيق من أجزائه وفروعه لضاق بي المقام، ولكني أنتقل منه الآن إلى الواجبات الزوجية، وهي المرحلة المهمة من حياة المرأة.

المطلب الثامن عشر: ترشيح الفتاة للزواج

لا بد لي قبل الشروع في هذا الموضوع من أن أبين الفائدة التي تنجم عن إعداد الوالدين بناتهم للزواج منذ الصغر؛ فإن تكييف العقل – وهو بعد ضعيف مرن – لأسهل جدا منه بعد أن ينمو ويقوى، واغتذاء الفتاة بمحاسن صفات والديها وصدق إرشاداتهم لأحكم وقعاً في نفسها وأشد رسوخاً من اقتباسها الحسنات بنفسها عند الكبر خصوصاً وأن التعلم بالاختبار لا يكون إلا متأخراً أي بعد وقوع الحوادث التي تؤلم عواطفها وتجعل لها من أثرها أمثولة بعد أمثولة تتصفحها بعينين مغرورقتين بدموع الأسف التي قلما تفيدها بعد ذلك لأن منزلتها تكون قد انحطت لدى عائلتها وقلب زوجها قد ابتعد عنها فيصعب عليها أن تسترده.

ولذلك أقول بوجوب اهتمام الوالدة بنصيحة ابنتها وإرشادها إلى معرفة الواجبات الزوجية وهي بعد فتاة بحيث يكون لها من سعة العلم بأخلاق الرجال والإلمام بأسرار الوجود ما تتمكن به من اتقاء كوارث الحياة بحسن سياستها وقوة صبرها وحكمتها.

ولكي تصل إلى هذه الغاية يجب قبل كل شيء أن تفهم حقيقة رجلها كما هو ليس كما تصوره لها أميالها ورغائبها فتعلم بأنها ككل مخلوق بشري فيه معايب وفضائل وأميال وأخلاق مختلفة قد تكون مستحسنة لديها أو مكروهة في عينيها ففي كل حال يجب أن تدرسها وتنحتها ما أمكن ثم تضيف إليها من مادة آدابها ما يمكن معه تشييد دعائم مستقبلهما وحفظ كيان راحتهما. ومن العبث وضياع العمر أن تحاول تغيير أخلاقه أو محو ما انطبع في ذهنه من صور الصفات الغريزية بالقوة والشراسة فإن ذلك فضلا عن أنه لا يأتي بفائدة فهو قد يعود عليها بالأذى والفشل عودة الغصن الصلب بعد محاولة له، وليس ذلك لأن الرجل شديد الصلافة والصلابة بل أن تطاول اليد لآدابه قد يمس كبرياءه ويزيد ببعده عن محجة الهدى. فإذا رأت الزوجة فيه عيبا، ورامت إصلاحه فليكن بالتوسل تارة والإغضاء طورا مع التودد والملاطفة والانعطاف والتسليم حيث لا ينفع الجدال فإن سلاح المرأة لطفها وصبرها، أما المكر والحيلة فهما بضاعة الخاسر.

سألت فتاة يوماً عقيلة المستر غلادستون، وهي مثال الزوجات الفاضلات كيف تهيأ لي السعادة في الاقتران فأجابتها ادرسي أخلاق زوجك ووافقيه عليها فإن المرأة أسهل مطاوعة وألين عريكة من الرجل، فعليها أن تكون البادئة في التوفيق بين طباعها وطباعه وأن تبذل في ذلك قصارى جهدها.

ولقد جرى أكثر الناس ولاسيما الشرقيون في تهذيب بناتهم على

قواعد سطحية لا تتجاوز بتأثيرها صقل الظواهر الخارجية فتبدو لعين الرجل جميلة زاهية تنبئ بصفاء جوهر النفس وحسن استعدادها، ولكن ذلك لا يثبت تحت محك الامتحان فأحرى بالفتاة أن لا تتخذ الجمال أساسا لبناء مستقبلها، ولا تكتفي باللباقة واللطف رأس مال لنجاحها وسعادتها، ولا تجعل العناء والتسلط وسيلة لنيل أمانيها وتحقيق رغائبها، بل تعتبر أن الزواج عبارة عن ضحية تقدم له نفسها بجملتها فمتى كانت غير مستعدة أو غير قادرة على تضحية نفسها ووقتها وقلبها على هذا المذبح المقدس تخير لها أن تبقى عذراء فتنقذ بذلك رجلا من العذاب وأولاده يشاطرونها الشقاء والأتعاب.

ويجب تعليم الفتاة أن أهم واجبات الزوجة الفاضلة هي المحافظة على أسرار زوجها فإن شقشقة اللسان من أعمال الطيش ونتيجتها سقوط منزلة المرأة والإضرار بزوجها، وكذلك إذا وجدت فيه عيبا فلا يجدر بها أن تبينه لصديقاتها حتى يعلم القاصي والداني بدخائل أمره خصوصا وأنه لا فائدة لها من وراء الإضرار به على هذه الصورة الممقوتة إلا إذا كانت تقصد أن تظهر للملأ ما هي عليه من التعس والشقاء معه، وفاتها أنه إذا كانت التي تشكو إليها عدوة لما سرت لشقائها وتمنت لها المزيد منه، وإذا كانت صديقتها حزنت لحالتها لأنها عاجزة عن تفريج كربها، وفي كلا الحالين لا تفيدها الشكوى سوى الفضيحة لأن الكلمة التي ينطق بها صاحبها تملكه وأما التي يحفظها فيملكها.

ولابد من الفكاهة بالحديث فإن الابتسام زينة الكلام وهو لازم

للحياة لزوم الملح الطعام ولكن مع الحذر والتروي، وكذلك البشاشة فإنها من أعظم البواعث على دوام الحب والهناء بين الزوجين.

وأفضل صفات في المرأة الاقتصاد فإنه مدعاة الراحة والثقة بين الزوجين، وهي كلما زادت بالحرص والتوفير زادها من البذل والسخاء اعتقادا منه أن أمواله لا تذهب من يدها عبثا وأن ما تدخره من المال يحفظ له ولأولاده، وبعكس ذلك متى رآها مائلة إلى البذخ والزينة فإنه لا يلبث أن يقتر عليها ويشكو دهره أبدا لديها فلتجتهد في أن تكتسب ثقته بتوفيرها ورصانتها وتجتذب رضاه وارتياحه بتدبيرها وحسن نظام معيشتها فإن الدقة والسلام مع المعيشة البسيطة أجمل جدا من جميع زخارف العالم يتبعها التعب والخصام.

المحاضرة التاسعة

المطلب التاسع عشر: في المطالعة

تقدم لي القول أن العلم في المدارس مهما كان راقية ومهما توفرت أسباب تحصيله لأولادنا فهو ليس إلا عبارة عن أساس لما يأتي بعده من العلوم الواسعة التي يتعلمها الإنسان بنفسه في مدرسة المستقبل، مدرسة العالم والاختبار، فإذا كان هذا شأن العلم في المدارس الراقية فكيف به في مدارسنا ولاسيما مدارس بناتنا وهي على ما نعلمه جميعا من الاقتصار على التعاليم الابتدائية البسيطة. إن الطالبات فيها ولا ريب أحوج إلى وسائل فعالة لتنوير عقولهن وتوسيع دائرة اختبارهن وتأهيلهن للواجبات العظيمة التي ستلقى إليهن، وأفضل تلك الوسائل المطالعة وادخار المعارف التي تجعل لرأس المال ما للعلم والأدب ما يؤمن معه شر الحياة ونوائبها.

فإنه ليس أفضل من المطالعة واسطة لإتمام الفائدة التي يتوخاها الإنسان في المدرسة ولاسيما ذات الخدر التي ما من سبيل غير هذا لتقدمها واتساع مداركها بعكس الرجل الذي قد يجد في معاشرة الناس ومعاملتهم ما يكسبه حنكة واختبارا عظيمين يغنيانه أحياناً عن مطالعة الكتب.

وكفى بالمطالعة فائدة للفتاة اشتغالها بها عن أمور كثيرة قد تأتي بها بعض السيدات عمدا أو اتفاقا بقصد التسلية وتمضية الوقت، وربما كان منها أعظم ضرر لهن وللآخرين كنقل الأخبار التافهة والتنديد بالغير..

هذا فضلا عما يستحوذ على السيدة من الضجر والملل من الحياة التي أكثرها بطالة وكسل مما يجعلها تعمد إلى تسلية نفسها بالزيارات والانصراف إلى الزينة والاهتمام بالأزياء الجديدة والتدخين إلى غير ذلك من الأمور التي تعود عليها بالأضرار المادية والأدبية والصحية.

فالمطالعة تشغلها عن مثل هذه الأمور فضلا عما تجده فيها من اللذة والتفكه فوق ما تقتبسه من العلوم والإرشادات وما تستزيده من المعارف بمتابعة الأخبار والاكتشافات العامية والاختراعات الفنية دون أن يكلفها ذلك كبير عناء فإن ما تتصفحه مثلا من المقالات العامية أو الأدبية أو التاريخية في دقائق قليلة وما يمكن أن تدخره من لقطات الأخبار وزبدة المعاني بمجرد إلقاء النظر على أسطرها الوجيزة، قد يبذل كاتبها الساعات والأيام شاحذا قريحته بأهميته منقبا في المؤلفات باحثا في تواريخ الأم ليستخلص من أفكار العلماء وأقوال الفلاسفة البلغاء ما يبني عليه تلك المقالة التي قد تصلنا مسبوكة في قالب البلاغة والاختصار حاوية كلا شاق وراقت مطالعته من الحب والأخبار كزهرة استمدت من الأرض غذاءها واكتسبت من جمال الطبيعة نضارة ألوانها وحسن تركيبها فظهرت لنا بأبهى رونق وألطف منظر لا يعوزنا سوى مد يدنا لاقتطافها.

ومتى عمّ العلم والمطالعة أفراد السيدات واشتغلن بهما عما لا ينتج لهن منه فائدة أصبح ذلك الميل فيهن طبيعيا فانصرفن إلى تداول الأحاديث الجليلة النفع وكتابة الفصول المطولة في ذلك وإنشاء

الجمعيات العامية والأدبية والخيرية التي قد يكون منها أعظم فائدة لهن وأفضل واسطة لتقدمهن، وقد تمكن السيدة من المطالعة بمجرد معرفتها القراءة والكتابة فترتقي بواسطتهما في المعارف إلى حد الوقوف مع أهل العلم. ذكر أحد الأطباء الانجليز في حفلة لا أذكر تاريخها ومكانها قال أن أكثر نسائنا اللواتي اشتهرن في حسن الإنشاء وذاعت شهرتهن في عالم الأدب والعالم لسن من حزن النصيب الكافي من التعاليم المدرسية بل هن أحرزن هذا المقام العامي الرفيع بانصبابهنَّ على مطالعة الكتب المفيدة وتصفح الأخبار العامية والمجلات الأدبية.

وهكذا نرى أن للمطالعة شأنا عظيما في ترقية العقل وتوسيع المدارك إنما يجب الحذر من الكتب المفسدة للآداب والمشوهة للأخلاق فإنها قد تؤثر في النفس تأثيراً سيئاً.

وعندي أن لا تطالع الفتاة كتاباً أو جريدة إلا بعد أن يطالعها أبواها ويتأكدا من فائدتها لها أما الروايات فالأفضل أن تمتنع البنات عن مطالعتها قبل بلوغ السن التي ترسخ فيها آدابهن على شكل لا يخشى مع تقلقلها فإنه مهما كانت الرواية حسنة المعنى جزيلة الألفاظ أدبية المغزى فإنها لا تخلو من حوادث غرامية وحيل فنية تنبه أفكار الفتاة وعواطفها إلى أمور لا تزال تجهلها وقد لا يفيدها أن تطلع عليها وتلم بأسرارها في زمن الحداثة والصبوة.

وما يقال في اختيار الكتب المفيدة للمطالعة يقال أيضا في اختيار الأصدقاء الملائمين للمعاشرة لأن الكتاب والصديق واحد من حيت

ائتناس المرء بهما والتأثر من معانيهما، ولذلك استأذن حضرات السيدات البحث في آداب المعاشرة.

المطلب العشرون : في آداب المعاشرة

للمعاشرة آداب ينبغي أن يحافظ عليها المرء في جميع معاملاته سواء في بيته أو بين أصدقائه ومعارفه مع رؤسائه أو خدمه وكل من يتعامل معهم كبارا وصغار نساء ورجالا فإنه مهما ارتفعت مظاهر الكلفة واشتدت رابطة الوداد بين صديقين أو أخوين أو زوجين فلا بد لكل منهم من مراعاة شعائر الآخر وإتمام ما عليه من الواجبات نحوه، وعلى ذلك نجد الغربيين يعلمون أولادهم آداب السلوك منذ الصغر بحيث يشبون وهم على علم تام بماهية واجباتهم نحو القريب والغريب فلا يشذون عن مصطلحاتهم الاجتماعية ولا تفوتهم معرفة واجباتهم البيتية.

أما نحن فقلَّ من يكترث منا لتعليم أولاده هذه الواجبات بل تترك ذلك إلى الطبيعة ثقة بأن ما يفوتهم تعامله منا يعلمهم إياه الاختيار، ولذلك ترى فتياتنا يرتبكن في أصغر الاجتماعات ويتلجلجن في أبسط الأحاديث لأنهن لسن على علم من الخطة التي يجب أن يتبعنها في أحاديثهن ومقابلاتهنَّ داخل المنازل وخارجها على المائدة وفي الطرق والمنتزهات والأسواق.

فإننا إذا راقبنا فتاتين أوربية وشرقية في وقت الزيارات لرأينا الأولى تستقبل ضيوفها بلطف وابتسام وتجالسهم وتحادث كلا منهم بما يقتضيه المقام دون أن يبدو عليها اضطراب أو ارتباك بل كأنما هي تقوم بعمل

عادي تعلمته وألفته حتى أصبح من الأمور السهلة لديها في حين أن الأخرى لا تكاد تقع عينها على زائراتها حتى تضطرب ويعلو وجهها احمرار الحياء والخجل فتتقدم للسلام عليهن وهي تتعثر بأذيالها وتكاد لا تملك نفسها من شدة الارتباك مما يستولي عليها من الحيرة والتردد في اتخاذ المكان المناسب لجلوسها والأحاديث التي يحسن البحث فيها وكثيرا ما يبدو منها تقصير يدعو للانتقاد عليها وهذا التقصير يظهر أيضا في أطفالنا وخدمنا وكل من تضمه منازلنا.

ولا يصلح ذلك إلا إذا اعتنت الأم بتعليم صغارها آداب السلوك ودربت خدمها على معرفة الواجبات التي يلزم أن يتبعوها ويحافظوا عليها فتستقيم أحوال الأسرة وتظللهم الراحة والسرور.

وأول ما يجب على الأم أن تعلم أولادها وجوب احترام بعضهم بعضا فلا تسمح لأحدهم أن يشتم الآخر أو يدعو عليه أو ينقل عنه خبر كاذبا أو يتهمه بأمر هو بريء منه لمجرد تكديره أو التشفي منه وبذلك تعلمهم وجوب احترام أنفسهم وإجلال الآخرين وينبغي أيضا أن تفرض على كل منهم أن يخدم الآخر ويساعده فيما يحتاج منه ون يذعن له ولا يستأثر بشيء دونه ثم تعلمهم كيف يجب أن يسلكوا في حضرة الزائرين وكيف يعلمون الخدم وما هي الآداب التي يجب أن يتبعوها على المائدة وفي الاجتماعات وما هي الملابس التي تليق أن يرتدوا بها إلى غير ذلك مما لا يخفى على فطنتكن فإن:

صغير السن في التأديب يرجى ولا يرجـــى لتأديـــبٍ كبيـــرُ

وأهم ما يطلب من الأم هو تعليم فتاتها آداب المعاملات الزوجية ويجب أن تفهم الفتاة أن أول شرط لازم في هناء المعيشة الزوجية هو الحب المتبادل بين الزوجين تلك العاطفة السامية التي تشرك قلبيهما فيبتهجان بتقاسمهما الأفراح ويقويان على احتمال الأحزان ولا يكون الحب بالتدليل وترديد عبارات الوداد ولا بالتزين وإظهار الانعطاف بل يكون بإنكار الذات وآثار كل من الزوجين الآخر على نفسه والاهتمام به في العسر واليسر.

المحاضرة العاشرة

الخاتمة

إذا نظرنا في أحوال الناس عموماً نجد عوامل عديدة تؤثر فيهم، ولذلك هم يختلفون كثيرا بين صقع وصقع ومن جيل إلى جيل؛ فالإقليم ومواقع البلدان واختلاف الفصول ودرجة الحرارة وسهولة الأرض ووعورتها وخصها وجدبها وجبالها ووهادها كل ذلك يؤثر في البشر فيجعل فيهم اختلافا في الأمزجة والأخلاق والتكوين نفسه بين قبيح وجمال وشدة ورخاء وضعف وحزم وخشونة ولين وشجاعة وجبن وذكاء وبلادة وترو وحمق واعتدال وتطرف وينطبع أثر ذلك في معاملاتهم وسياساتهم وهذا من جملة أسباب عدم تساوي البشر في صفاتهم ونظاماتهم واستعدادهم وسائر ما يتعلق بهم.

على أن الإنسان قادر بما فيه من قوة الكسب بالاختبار وما له من وسائل الاستنباط على مقاومة هذه العوامل الطبيعية وتعديلها وتكييفها وصرفها إلى منفعته أو ضرره بحسب ميله واستعداده. يدلنا على ذلك الاختلاف البين في أهل البلد الواحد بين عصر وعصر؛ فإن الشعوب الأوربية والأميركية قد ارتقت في العصور الأخيرة ارتقاء عظيما مع وجود بلادها دائما في منطقة واحدة وإقليم واحد وتأثرها بمؤثرات طبيعية واحدة وكذلك الشعوب العربية قد تأخرت عن العصور الماضية مع استمرار أحوالها الطبيعية وتساوي أقاليمها الاستوائية؛ فلا بدَّ إذاً من

عوامل أخرى غير العوامل الطبيعية تؤثر في أحوال الإنسان هذا التأثير العجيب.

وهذه العوامل الأخرى هي ما يسمونه بالعوامل الأدبية، وهي تنحصر في أمرين أساسيين هما التعليم والتربية ويشترط في ذلك التعليم الذي يتولى قيادة العقل وصياغة أحكامه والتربية التي تتولى قيادة الأخلاق وطبعها على الخطة التي ترسمها لها.

وبديهي أن هذه القيادة في التعليم والتربية لا تكون حسنة إلا إذا كانت نافعة ومفيدة للغاية التي وضعت لأجلها، ولكي تكون كذلك يجب أن يكون مرماها تعرف الطبيعة كما هي حقيقة لا كما يصورها لنا الوهم أو الأماني وإلا وقع الضلال وكان العلم شرا من الجهل.

ولقد بحثت في محاضراتي الماضية في أصول التربية العقلية والجسدية بحثاً مفصلاً وأبنتُ الخطة التي يجب أن يسلكها المربون والمعلمون في تقوية أجساد الأولاد وتهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم والآن أستأذنكن بالبحث في أحوالنا الخاصة وماهية التربية والتعليم التي نحن سائرون عليها ونتائج تأثيرها في أبنائنا وبناتنا بحيث يتبين لنا الضار منها فنجتنبهُ، والصالح فنتمسك بأهدابه ونجري على قواعده.

إن التربية كانت ولا تزال متأخرة في الشرق تأخرا عظيما ليس بالنسبة إلى الأمم الراقية اليوم فقط بل بالنسبة إلى ماضينا وما كان عليه أسلافنا من العقول الثاقبة والمبادئ القوية والطباع الراقية والذكاء الباهر والبيان الساحر وما كانت عليه نساؤهم من الحصافة في الرأي والبسالة في المعارك والبلاغة

في النظم والنثر والتشبث بعرى الآداب والفضيلة والشرف بحيث أننا إذا قابلنا بين أحوالهم وأحوالنا وآدابهم وآدابنا يبدو لنا فرق عظيم ربما يدفعنا أو يدفع بعضنا إلى الاعتقاد بأننا لسنا من طينة تلك السلالة الممتازة بطيب محتدها المتفردة بمحاسن أخلاقها، بل إنما نحن أحط منهم جبلة وأخلاقا وأضعف منهم عقلا وإدراكا ولذلك عجزنا عن مباراتهم.

كلا يا سيداتي إننا لسنا أضعف من أسلافنا عقلا ونساءنا ليست أقل من نسائهم حصافة وذكاء ولكن هي الحوادث قضت بأن يكون عصرهم ربيعا زاهرا بورود الرقي الطبيعي فكانت الصفات الطيبة والآداب العالية فطرية فيهم يتوارثونها خلفا عن سلف وقد زادها رسوخا فيهم نقاء سريرتهم وبعدهم عما ينطبع في النفس من سوء الملكات التي يدعو إليها تنازع البقاء في الحياة الحضرية.

أما نحن فقد وجدنا في عصر أشبه بفصل خريف مظلم الجو متناثر الأوراق لا أثر في تربته لبذور العلم ولا مساعد في طبيعة جوه لاستثمار التربية ولا بدع فإن للحياة العمرانية أدوارا تتقلب فيها تقلب الفرد في أطوار حياته الطبيعية وتمر بها فصول تختلف بين قيظ يذهب برواء مدنيتها وجليد يوقف حركة أعضائها وربيع يخلع على رياضها حلل البهاء والارتقاء وخريف يلبسها ثوب القحط والفناء. ولما كان من نصيبنا أنَّا وجدنا اليوم في دور مظلم كان علينا أن نقوم بنشر أنوار العلم والمدنية لكي يتيسر لنسائنا أن يضعن الأساس اللازم لبناء العمران على شكل يضمن سلامة الوطن ويرفع شأن الأمة، وهذا ولا شك عمل كثير الوعورة

عظيم الأهمية لا نلام نحن الشرقيون إذا وقفنا لديه زمنا جزعين مستسلمين لليأس بل لا يؤخذ ذلك دليلا على انحطاطنا وعدم مقدرتنا على التشبه يوما بأسلافنا والاقتداء بالأمم الراقية من جيراننا فإن ما نراه من نجاح ناشئتنا بالعلوم وتبريز أفرادها على أقرانهم من الغربيين في المدارس الأوربية والأميركية يؤيد لنا وفرة ذكاء الشرقيين عموما والمصريين خصوصاً ومقدرتهم على مسابقة الأوربيين في حلبة النجاح متى مهدت لهم السبل لذلك.

أجل يا سيداتي إن لدينا من الاستعداد العقلي ما يؤهلنا لبلوغ أقصى درجات الفلاح وإنما ينقصنا العلم – العلم الصحيح – العلم النافع – العلم الذي يثقف العقل وينيره ويعظم شأن صاحبه وينقصنا بسبب ذلك كله خصوصا الاختبار.

فإذا تقرر لدينا ذلك يلزمنا أن نبحث في ماهية التعليم النافع والتربية اللازمة لنا متخذات أفضل أحوال الشعوب الراقية نموذجا ننسج على منواله ونجتهد بتجاوزه إلى ما هو أفضل أيضا ولاسيما وأننا من سلالة قوم شهد لهم التاريخ بالاستعداد الفطري الحسن القبول للرقي في العمران. وسواء انتسبنا إلى المصريين الأصليين أو إلى العرب، فالمصريون القدماء بلغوا من التمدن شأوا سبقوا فيه سائر الأمم والعرب بلغوا في الحضارة مبلغاً فازوا به على سائر معاصريهم، وإذا رجعنا إلى شهادة علماء الأنثروبولوجيا. وهو العلم الذي يبحث في تكوين الإنسان الطبيعي وجدناها متفقة مع شهادة التاريخ لهم قال البارون لا ترى في وصف الأعراب.

«إنهم يسمون على سائر الأجيال بالنظر إلى هيئة القحف وسعة الدماغ وكثرة تلافيفه وبناء الأعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج العظمي وقوام القلب ونظام نبضاته فضلا عما هم عليه من ملاحة السحنات وتناسب الأعضاء فهم قد جمعوا بين العقل الصحيح والجسم الصحيح، ولذلك بلغوا من الحضارة والمدنية وفخامة الملك وبسطة العمران مبلغا عظيما فإن قلنا أن سبب هذا النجاح في الماضي هو تأثير طبيعة البلاد في التكوين والأخلاق فهذه الطبيعة لم تتغير اليوم عما كانت عليه في ذلك الزمن فلماذا إذن تغيرنا نحن؟.

إن هذا يؤيد ما قلته سابقا بأن العوامل الأدبية متممة للعوامل الطبيعية وكثيرا ما تتغلب عليه، وما تأخرنا اليوم إلا من نقص هذه العوامل الأدبية فينا.

ولا مشاحة في أن علمنا اليوم ناقص جدا وتربيتنا سقيمة فمدارسنا الابتدائية لا تزال لسوء الحظ وسيلة لزيادة صدأ الأذهان أكثر منها لإزالة أدران الجهل، ومدارسنا العالية وإن كان عليها مسحة من النظامات التي اقتبسناها عن سواها من مدارس الأمم الراقية إلا أنها ليست من أرقاها لان هذه النظامات في البلاد الراقية نفسها متفاوتة وأرقاها لا يسلم من الاعتراض والعلم فيها أكثره نظري ونحن في حياتنا محتاجون اليوم إلى علم عملي حسي صادق الاختبار في مقدماته وما يبنى عليها من النتائج قريب المأخذ مؤكد الفائدة لا يضيع فيه وقت التلميذ جزافا ولا يتيه عقله فيه ضلالا يجب أن تكون المدارس عبارة عن حقول وجبال ووهاد

ومعارض ومصانع مصغرة يلمس التلميذ بيديه ويرى بعينيه ما يقرأه في كتابه المختصر المفيد وهي أمنية مدارس المستقبل. أما تربيتنا البيتية والاجتماعية فمجموع سخافات وخرافات لا طائل تحتها في تربية العواطف إلى درجة التأثر الشديد وفقدان الصبر والاحتمال، وتعد العقل لقبول أنواع الضلال وكذلك ترفه الأجسام إلى حد الترهل وضعف القوى.

هذه هي خطة التربية والتعليم التي يسير عليها الوالدون في البيوت والمعلمون في المدارس وهي التي يجب أن تصلح أولا بتقوية الأجسام وذلك بالرياضة وتعريضها للهواء والشمس وتعويدها الأعمال الشاقة البدنية ثانيا بإصلاح منهج التربية في البيت والتعليم في المدارس وتلقين الطفل وهو بعد في البيت قبل دخوله المدرسة مبادئ العلوم الطبيعية شفاها وبطريقة حسية سهلة المأخذ كما بينت ذلك في باب التربية البيتية.

أما التعليم في المدارس فإننا إذا نظرنا إليه نظرة خالية من الغرض والتشيع لا بد لنا من الاعتراف بأنه ناقص جدا بل فاسد أيضا أقول ذلك متذرعة به إلى استلفات الأنظار عموما للإصغاء إلى ما سأبديه من الملحوظات العمومية المتعلقة بموضوع التعليم سواء في مدارسنا الابتدائية أو العالية ملتمسة منكن ومن جمهور المطلعين على كلامي هذا استيعابه بمنتهى التسامح اللازم لطلاب الحقائق الذين لا يسمحون لأغراضهم مهما كانت أن تطمسها.

قلت إن التعليم في مدارسنا ناقص جدة وفاسد أيضا يضل فيه العقل ضلالا، ويضيع فيه وقت الإنسان سدى بما ينفقه فيه من الزمن

الطويل جزافا على غير جدوى، وقد تسوء معه أحكامه لقيامها على أسس أقرب إلى النظر والخيال منها إلى الواقع والاختبار.

لنأخذ أي برنامج من برامج المدارس عموماً ونفحصه بالنظر الصائب والعين النافذة فنجد أن أساس أكثره النظر لا العمل وإجهاد الأحكام المبنية على النظر العقلي أكثر من الأحكام المبنية على الاختبار العملي. يجلس التلميذ في مدرسته ويأخذ يقرأ ويدرس ويحفظ عن ظهر قلبه أدبيات ومبادئ وأموراً لا يرى لديه أثراً حسيا يؤيدها فتنطبع فيه انطباع الأصوات الفوتوغرافية والصور الفوتوغرافية ولا يكون شأنه إلا شأن الببغاء لا يلبث أن ينساها عاجلا أم آجلا وتزول صورها من ذهنه بالكلية. هذا فضلاً عن مخالفتها أحياناً كثيرة للواقع مما يجعل أحكام العقل على التمادي متناقضة غريبة جدا مع قضاء هذه الغرابة وذلك التناقض على صاحب الفكر نفسه.

وإننا إذا نظرنا إلى أهل العلم في بلادنا نجد أكثر الذين نبغوا منهم وحازوا مكانة عالية من الآداب هم من أهل التحصيل وأرباب الاجتهاد الذين لم يتعاملوا في المدارس مطلقا أو تعاملوا فيها شيئا قليلا لم يقو على تقييد أفكارهم الحرة وغل نفوسهم المطلقة بل درسوا العلم على أنفسهم واختاروا منه ما تقبله عقولهم فاستفادوا منه حقائق رسخت في أذهانهم وانطبعت على لوح حافظتهم فبلغت بهم منزلة عالية من العلم والإحاطة بأصوله وفروعه.

هذا فيما يختص بمدارس الأولاد، فما قولنا بمدارس البنات، وهي

كما تعلم عبارة عن كتاتيب بسيطة لا تأتي الفتاة بالفائدة المطلوبة ولا تجعلها نافعة في عائلتها ولذلك فإننا ننتظر بذاهب الصبر أن تأخذ الحية فضليات نسائنا فيباشرن سد هذه الثلمة بإيجاد مدارس للبنات تعلمهن العلوم اللازمة لترقية عقولهن واتخاذ ما يلزم من الوسائل التنمية قواهن الجسمية وملكاتهن العقلية فيعرفن ما في الكون من الموجودات ويتشوقن إلى استطلاع عجائبه والوقوف على أسراره.

والمقصود من تعليم المرأة ليس أن تكون أستاذة أو مشرعة أو فيلسوفة ولكن لتعرف كيف تبث الأفكار العالية في أولادها وتذهب بهم إلى ما تريده لهم من النجاح والفلاح

ومما يلزم البنات والصبيان على السواء الاشتغال بآداب اللغة العربية والتوفر على إتقان علومها وأحكام الجري على أسلوبها علما بما لها من المزية التي انفردت بها عن سائر اللغات فضلا عن أن إتقان اللغة الوطنية عند كل أمة مقدم على جميع العلوم وهي القالب الذي تسبك في المعاني والمرأة التي تمثل فيها صور الخواطر فمتى كان ذلك القالب أجمل تكوينا وتلك المرأة أصفى ماء جاءت المعاني أبدع إحكاماً والخواطر أنصع بياناً.

وإن ما نراه من تنبيه الأفكار إلى نشر المدارس وإصلاح نسق التعليم فيها يبشرنا بفجر نهضة جديدة سوف تكسب البلاد حلل الارتقاء في ظل عزيز قطرنا مولانا الخديوي العظيم الشأن.

تربية الذوق

خطاب ألقيته في حفلة جمعية غرف القراءة في بحمدون «لبنان» في آخر شهر أكتوبر فآثرت إضافته إلى هذا الكتاب.

لما أن موضوعه في التربية طلب إلي أن أحدثكم الليلة بما يتنزل منزلة الخطابة فأجبت الطلب على اعترافي بقصر الباع وقلة البضاعة وقدمت إلى بحمدون هذه القرية الجميلة مساء أمس والثقة تملأ فؤادي بأني سأجد لضعفي شفيعا لديك ومن كان شفيعه أمثال حضراتكم فلا يخشى الانتقاد.

جئت أمس إلى بحمدون وما استقر مقامي فيها حتى شعرت بلطف هواها وطيب مناخها خفق فؤادي شكر لرجال هذه الجمعية الأفاضل الذين كانوا السبب في تمتعي بذلك السرور ووقفت حينا أمتع طرفي بجمال الطبيعة وبهائها؛ فأبصرت مشهدا لا يمكن أن تقع العيون على أجمل منه، رأيت غيوما تلبد بعضها فوق بعض كأنها جبال تمتد من جهة المغيب حتى جبل صنين وهي بين لطف وكثافة تمثل فيها رسوم واضحة كأنها أشجار تتعانق أغصانها في غفلة من عيون البحر المراقبة أو غادة يبدو وشاحها الأبيض من خلال حلقات شعرها الحالك السواد ومن ورائها ذكاء تختال بحلتها الأرجوانية كشعلة نار ترسل من لحاظها سهاماً تخترق تلك الجبال البخارية وتطبع على وجناتها قبلا حارة فتعيرها من الورد احمرارا ومن البنفسج استحياء واتضاعاً.

كل ذلك والنسيم يهب عليها مداعبا فيعبث بطيات ثوبها الرمادي ويكشف الستر عن هامتها فيبدو رأسها متوجة بأشعة ذهبية يخطف بهاؤها

الأبصار ويحير جمالها الأفكار وكأن في يديها صولجانا من نور أو سيفا من نار تحركه بإشارة من مليكه الطبيعة فيترك بمروره خطوط ساطعة ترتسم بأشكال هندسية ثم تضمحل وتتلاشى طي تموجات النور، فلبثت أعاينها وهي تسير ببطء نحو الشرق ومن تحتها الجبال مشرقة الوجه باسمة الثغر وقد ساد السكون على البسيطة فلم أر غصناً يميل أو نباتا يتحرك بل لم يكن هناك عصفور يغرد أو ماء ينساب كأنما كل ما في الطبيعة شاعرا بحال المشهد وجلاله فقطع أنفاسه وجمد في مكانه هيبةً وخشوعاً.

على أني رأيت أفراداً وجماعات من الناس كباراً وصغاراً صبياناً وبنات يسيرون في الطرق والحقول وهم بين محدث ومصغر عابس وضاحك مسرع ومتمهل، وكل منهم منصرف بأفكاره إلى وجهة جعلها قبلته.

ولكن اسمحوا لي أن أقول لكم: أنه لم يكن بينهم من اكترث الجمال الطبيعة أو أرسل نظرة اهتمام لما هو جار فوقه من بدائع المشهودات.. أجل لم أر أما تستلفت أفكار ولدها إلى أعمال أمه الطبيعة ولا رأيت والدا يظهر لابنته عظمة الكون وغرابة نظامه، بل لم أر غادة حدقت في العلا أو شاباً أخذ بجمال تلك المشاهد الغراء كما أني لم أبصر صغيرا يشير ببنانه الترفة إلى تلك الرسوم المنقوشة بأبهى الألوان ولا شيخاً يرسل رائد الفكر في مجاهل الفضاء مسبحا باري الأكوان.

أجل أيها السادة لم يكن فيمن رأيتهم من مال بوجهه نحو تلك المشاهد التي خطتها يد الطبيعة بأبدع الأشكال جعلت من تلك الغيوم المتراكمة شبه أنهار تجري من تحت قناطر سنجابية تعلوها هضاب

وآكام ويحيط بها صخور وحصي ورمال، ومن ورائها زرقة السحاب تجسم الرسوم ما فيها من خلايا وسدود ونتوءات بحيث تبدو للناظر على أتم وضوح وأبدع مثال.

وكأني بالشمس حزنت لما صادفته بين أبنائها من قلة الاحتفاء بشأنها وعدم الاكتراث لأمرها فاكفهر محياها أسفا وبردت أطرافها تأثرا، ثم ما لبث أن خفق فؤادها بزفرة حارة وأغمضت أجفانها فغابت رسل أنظارها ومالت برأسها فوق كتف البحر خبأت وجهها بين طيات أمواجه.

وعندئذ نبهتني يد الظلام الباردة التي كانت تمتد نحو صفحات الوجود فتطمس رسومها وتمحي آيات جمالها فوقفت متسائلة عن معنى هذا الجمود وأسباب الإهمال هل يمكن تأويله لقلة جمال مشاهد الطبيعة والطبيعة أجمل ما في الوجود، أو لعجز الإنسان عن إدراك أسرارها وهو العاقل الحكيم والمخترع العظيم، لعمري لا هذا ولا ذاك ولكننا نحن الشرقيين على اختلاف نحلنا وطبقاتنا لم نتعود الالتفات إلى الأشياء الجميلة ولا توفرت لنا الوسائط الفعالة لتربية الذوق وإنماء حاسة تقدير الأمور العظيمة قدرها.

عفوا سادتي إنني لا أقصد بذلك لوما أو عتابا، بل حاشا لي أن أنسب لأبناء جنسي وبناته ضعفا وعيبا، وهم سلالة أقوام اشتهروا من قديم الدهر بالمدنية والارتقاء ولن يزالوا على قلة وسائط التقدم وحداثة عهدهم به يعدون من أكثر الشعوب ذكاء وأسماه أخلاقاً.

ولكن هي الدنيا لحياتها أدوار وأطوار لا بد أن تمر بالشعوب

فتجعلها كالأفراد تارة طفلة بلهاء وطوراً صبية حمقاء وحيناً كهلة حكيمة وآخر شيخة خبيرة.

ونحن في طور الحداثة إن لم أقل دور الفطام بل نحن في دور النقاهة من مرض لا ذنب لنا في تفشيه وإنما هو ذنب الأيام.

فقد وجدنا في فصل خريف تناثرت أوراق العلم عن أغصانه وتلبد جوه بغيوم التأخر فرأينا أنفسنا على حضيض من الأوهام والسخافات لا أساس علم فيه نشيد عليه ولا مثال ننسج على منواله، فكان علينا أن نضع الأساس وأن ننسج المثال ولقد فعلنا وبلغنا بعض المأمول فانتشرت بيننا المدارس واتسعت المعارف وارتقت العقول حتى أصبحنا اليوم غيرنا منذ ٤٠ عاماً، فنحن مهما تأخر حالنا فلنا فضل المتقدم، على أنه لا يزال ينقصنا أمر جوهري لا نستطيع ابتياعه بالمال ولا يمكننا التقاطه مع مفردات اللغات كما أننا لا نجده في ساحات الخاصرة ولا توحيه إلينا نغمات الأوتار وإنما نجده في البيت، في كنف الأمهات، ألا وهو التربية عموما وتربية الذوق خصوصا إن تربية الذوق لمن أهم الأمور للأحداث لأن عليها تترتب فوائد جمة للإنسان قد تكون سبب تقدمه في مدارج العلاء أو تأخره إلى أسفل الدركات، فكم من تاجر بارت تجارته لأنه لم يحسن وضعها ولم يراع تناسق ألوانها، بل كم من فتاة ضاع جمالها لعدم اختيارها اللون والزي الموافقين لها.

أو لا نرى أحيانا كوخا حقيرا لا رياش فيه إلا ما كان بخس الثمن ومع ذلك نجده جميلا لحسن ترتيبه ووضع أشيائه في محلها بشكل

ترتاح النفس إليه وأحيانا ترى قصر شاهقا تنبو العين عن رؤيته على ما فيه من الأمتعة الثمينة والرياش النادرة وذلك لخلوه مما يميل إليه الذوق السليم.

إن تربية الذوق ترفع قدر المرء وتلطف أخلاقه، تدفعه إلى إتقان أعماله وتساعده على تنضيد ألفاظه وتجعله يدرك قدر الأعمال العظيمة فيميل إلى الاقتداء بأصحابها وعلى الجملة فهي تساعد على اقتباس كل صفات حسنة واحترام كل عمل جليل.

بل إن تربية الذوق هي أصل سعادة الإنسان لأنه على قدر حسن ذوقه تكون قوة تمييزه الأشياء ومعرفته أوجه الشبه والعلاقات بينها، ولا بدع فإن الذوق هو القوى العاقلة التي تتأثر من الشيء الجميل فإذا لم تهذب هذه القوى لبثت ضعيفة قليلة النمو وكان صاحبها أشبه بآلة تتحرك ميكانيكيا دون أن يتقن عملا من الأعمال أو يبرع بفن من الفنون، وهو لا يدرك الفرق الكائن في درجات الجمال وإذا فعل فإدراكه يكون ضعيفا بالنسبة إلى غيره من أصحاب الذوق السليم. ويتضح لنا ذلك متى أوقفنا اثنين لدى صورة متقنة الصنع وكان أحدهما مصوراً بارعاً والآخر بسيطاً جاهلاً فنرى الجاهل يستحسن الصورة استحساناً سطحيا حتى لو لم تكن تستحق الاستحسان فيكفيه ما يراه فيها من تزويق ألوان وبرقشة ظواهر وقد تكون هذه حالته لدى أحر الصور عملا وأحقرها، لا فرق عنده بين هذه وتلك ولا أفضلية في أحدها. في حين أننا نرى المصور يتأثر من حسن إتقانها تأثرا يتناول كل عواطفه وإذا كان فيها ما

يدعو إلى الانتقاد أدرك ذلك بلمحة وبين مكان الخطأ فيها وبهذا يتضاعف سروره وتأثره.

فما هو السر في ذلك وما هو السبب في الفرق الكائن بين المصور والجاهل. الفرق هو أن المصور نال حظا من تربية الذوق لم ينله الجاهل فكان ما رأيناه من تباين شعورهما لدى الصورة.

ومعلوم أن الناس مختلفون أبداً في أذواقهم اختلافهم بأميالهم ودرجة إفهامهم حتى سار القول مثلاً بان (لا جدل في الذوق).

وليس الغرض من التربية إزالة هذا الخلاف وإنما القصد انتماء القوى العاقلة حتى تصير قادرة على إدراك أسرار الجمال والتمييز بين درجاته، وبذلك ترتفع منزلة الإنسان الروحية وتصبح غايته من الحياة عظيمة سامية أرفع من أن تقنعها الماديات أو ترضيها الأرضيات.

إن الغاية القصوى التي يسعى إليها المرء في دنياه هي السعادة بلا ريب والسعادة لا يمكن أن ينالها الجاهل بجهله أو الغني بثروته أو البطل بقوته أو التقي بصلاته فتلك أمور وإن أتت للإنسان بعض الفائدة، فلن تجعله وحدها سعيدة وإنما السعادة الحقيقية هي التنعم بملذات العقل والتمتع بنتائج أعماله ولا يسع العقل إدراك هذه الملذات إلا إذا تهذبت فيه حاسة الذوق.

ألا نرى كيف أن الشاعر متى أجاد قصيدة يقف عند نهايتها ناظرة في سطورها متأملا معانيها بسرور يلامس روحه ويستولي على كل عواطفه

ومثله الكاتب متى عني بتدبيج مقالة رنانة محكمة السبك وكذلك المصور والنقاش متى أبدع كلاهما في صنع رسم أو تمثال. وقس على هؤلاء النجار والإسكافي وغيرهم فإن كل من عمل عملا وأتقنه شعر بان عقله يترنح ثملا بخمر الفوز وروحه تطير في جو السرور والإعجاب، أما من لم تهذب ذوقه فقد حرم طبعا من هذه اللذة الروحية بل السعادة التامة وكان شبيها بالعجماوات التي تعيش لتحمل الأثقال وتملأ جوفها بأنواع المآكل.

وأفضل الوسائل التربية الذوق هي الموسيقى والتصوير؛ فالأولى ترفع النفس إلى أسمى مراقي الكمال واللطف وتلبسها أجمل حلل الرقة والحنان فتنتمي فيها عواطف الحب والشفقة وتميل بها إصغاء لصوت البائس وزفرة اليائس. والثانية تنمي في المرء قوة التصور وحسن التميز وتساعده على إدراك قدر المحسوسات وكيفية نظامها، ومن دواعي الأسف أن هذين الفنين منحطان جدا في الشرق كما هي الحال في سائر الفنون الجميلة.

تلك هي أكبر أسباب تأخرنا في ميدان الرقي، أما في الغرب حيث الحال على عكس ما هي عندنا فإن شعوبه ينافس بعضهم بعضا بالاختراعات الصناعية والاكتشافات العالمية فضلا عما يتحلى به أفرداه من حسن اللباقة والظرف وما يشبون عليه من المبادئ المتقاربة الأصول المتشابهة العادات بحيث يجد كل منهم ارتياحا للوسط الذي هو فيه وسروراً من معاشرة أي كان من أبناء جنسه، أما عندنا فالقوم خليط بعاداته

متباين بأمياله مختلف بمعارفه حتى نكاد لا نجد اثنين غريبين إن لم أقل أخوين على اتفاق في مبدأ أو رأي، وما ذلك إلا لعدم وجود أساس نشيد عليه دعائم حياتنا الأدبية أو قاعدة نجري عليها في آدابنا الاجتماعية.

يصحب الغربي ابنه إلى حيث توجد الآثار القديمة مثلا فيبدي له من عظمتها السالفة وقدر أصحابها الغابرين ما يملأ قلبه الصغير احتراماً وتعظيماً ويقف به لدى بعض تماثيل الرجال العظام فينقل إليه من أخبار مجدهم وسالف عزم ما يجعله يرفع رأسه افتخاراً وإعجاباً، وهكذا يدرك شيئاً فشيئاً قيمة تلك الآثار ويندفع يوماً فيوماً لاقتفاء أثر أصحابها.

أما نحن فإذا اتفق لنا أن تمر بقرب الأرز أو قلعة بعلبك أو آثار تدمر فأكثرنا يكتفي بإلقاء نظرة بسيطة قد لا تشمل سائر مظاهرها ومجوداتها وقل منا من يهتم لمعرفة تاريخها أو يشرح لولده شيئا عنها فالولد الذي يشب على هذه الحال يظل كل عمره بليداً مغتراً بنفسه يجهل فضل الرجال ولا يعرف قيمة الجميل من الأعمال وقد يعتقد أن الدنيا قائمة بمحل وجوده والعالم محصور بذاته الكريمة لا معارف إلا ما يجمعه ضمن دائرة عقله الضيق ولا من يستحق الاهتمام والاحترام إلا جنابه الكريم.

يعلّم الغربي ولده مبادئ الدين بأن يستلفت نظره إلى جمال الطبيعة ونظام الكون فينتقل بأفكاره إلى أعالي الجبال حيث يريه هندسة تركيبها وأنواع صخورها ويهبط به إلى أسفل الوهاد فيشرح له كيفية تكوينها.

وتحجر أخشابها ثم يحول وإياه مع السيارات وحول الشمس وبين

النجوم فيشرح له عن دقة نظامها وغرابة ترتيبها وشكل حركاتها وجمال منظرها حتى إذا امتلأ دماغه الصغير احتراما لكيانها وهيبة لعظمتها وإعجاباً بترتيبها. أفهم حينئذ أنه يوجد من هو أسمى منها كثيراً ألا وهي القوة التي أوجدتها: الإله الخالق، بهذه الواسطة يمتلئ الولد احتراماً لذلك الخالق القدير.

أما نحن فنبدأ بتعاليمنا الدينية بعبارات مبتذلة نرددها على مسمع الولد إلى أن ترسخ في ذهنه فيكررها دون أن يفهمها أو يخطر له تفهم معناها وننتهي بمواعظ وإرشادات تقتل عقل الولد بعويص ألفاظها وتعقيد معانيها، وهكذا ترون أيها السادة أن أبناء الشرق محرومون من وسائل الارتقاء الأدبي سواء في البيت والبستان في المدرسة والسوق لا مربي لهم ولا مرشد ولا معلم وما نبغ بعض رجال ونساء فيهم إلا بجدهم واجتهادهم وكثرة مطالعاتهم وانصبابهم على توفير معارفهم والعمل على تثقيف عقولهم وتحسين صفاتهم، وهؤلاء هم أمثال حضراتكم الذين برهنتم بحضوركم هذا الاحتفال على أنكم أكرم من يوصل بهم الرجاء وتناط بهم الآمال.

فإياكم أدعو لإصلاح الحال ومنك أرجو الاهتمام لتربية الذوق في الأولاد، أدعوكم إلى العناية بإنماء عقولهم وتقويم أخلاقهم، إلى تشويقهم للبحث وترغيبهم في الدرس إلى غرس حب الطبيعة في قلوبهم وهم أحداث، وأخيراً إلى تحسين الذوق.



الفهرس